طرائف وحكايات من القرية

أسامة كامل أبو شقرا

طرائف وحكايات من القرية

طرائف وحكايات من القرية

الطبعة الأولى: 2024

ردمك: ISBN 978-1-7387694-3-8

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو أيّ جزء منه بكل الطرق والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والكومبيوتر وبأي وسيلة أخرى إلا بإذن خطي من المؤلف.

أسامه كامل أبو شقرا

E-mail : clc74oac@gmail.com

تصميم الغلاف

إيما حركة

أعمال سابقة للمؤلف

دليل الموضوعات في آيات القرآن الكريم - الطبعة الأولى - بيروت - 2001.

أصول تطبيق قانون الضريبة على القيمة المضافة - الطبعة الأولى - بيروت - 2002. الطبعة الثانية - بيروت 2004.

المسيح (عليه الصلاة والسلام) **في القرآن** - الطبعة الأولى - بيروت 2004.

وترجم إلى الفرنسية في العام 2013 بعنوان:

Jésus - Christ et la Vierge Marie dans le Coran - 1ère édition - Beyrouth – 2013

الاقتصاد في القرآن - الطبعة الأولى - بيروت - 2007.

أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا - تحقيق - الطبعة الأولى - بيروت - 2011.

حنينُ الحُبِّ – قصص قصيرة - الطبعة الأولى - 2016 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

عودة إلى أسباب أحداث القرن التاسع عشر في جبل لبنان - 2017 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

الجهاد في القرآن، لا قتال بعد وفاة النبيّ ﷺ – 2018 - الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت - لبنان.

أحاديث الرسول ﷺ بين الصحيح والمنحول - 2021 - دار يافا العلمية للنشر والتوزيع – عمان الأردن، ودار الدندشي للطباعة والتوزيع – مونتريال – كندا.

حوار شيخين في الإسلام – 2021 - دار يافا العلمية للنشر والتوزيع – عمان الأردن، ودار الدندشي للطباعة والتوزيع – مونتريال – كندا.

وينتصر الحب (مجموعة قصص اجتماعية) – طبعة أولى – 2022 – بيروت - لبنان

خواطر من أيام العمر – طبعة أولى – 2022 – بيروت - لبنان

محتوى الكتاب

المقدمة	9
الشيخُ والحقنَةْ	11
«آخ قتلتني يا شيخ»	15
«بَرَزَان» الشعير	17
حية في «شروال» سليم	19
شاي سعيد	21
«حلا والقَيْمَة»	23
الثلاث شعرات	27
كامل بك والعمامة	30
عشق التقاتل في سبيل الآخرين	33
ما أشبه اليوم بالأمس	35
«إشرب نقطة»	37
«راسه طاير»	39
«عروس» فوزي	41
«بدبس يا لبيبة»	43
أمعاء مسعود	47
«راحتين وكمشة»	49
«المُخَرْمِش»	53

قِطّةُ عادل 59
تنصيب أول بطريرك للرّوم الملكيّين الكاثوليك 63
صابر والملفوف 65
من يُحبُّ الشيخ فليتبعْهُ 69
«صيبة العين» 73
كاهن مسيحي يصلي على مسلم ميت 77
الحراثةُ بثورٍ واحد 79
طير «أبو فار» 83
«لبّادة ونص» 85
«تراموای» بيروت 89
أمير البُزُق 91
القمر وقصة عنترة 93
«عاليادل يا دل يا دل يا أم العبيدية!» 95
الشيخ أبو علي بشير 98
«حط في الخرج» 103
البلاد لا تسع يوسفين 105
البريد الأبيض 109
ذياب وأبو زيد 111
خلاف شريف 115

المقدمة

حتّى منتصف القرن الماضي كانت قرى كثيرة في لبنان لم تزل تتمتع ببساطة العيش، إذ لم يكن التيار الكهربائي بعد قد أنار أزقتها ومنازلها، وبالتالي لم تكن بعد تفاهات وسموم محطات التلفزة الفضائية، مما نراه في أيّامنا هذه، قد لوثت أجواءها. حتّى أجهزة الراديو كانت قليلة أو نادرة. وكان أبناء تلك القرى في معظم أيّام السنة، فيما عدا أيّام الشتاء، يغدون مبكرين إلى أراضيهم للاهتمام بما عليها من أغراس ومزروعات ثم لجني ما تؤتيه من غلال لتحضير مؤونة الشتاء. وهذا من دون أن يتأخروا عن القيام بواجباتهم العائلية أو الاجتماعية. وكان أبناء كل قرية فيما بينهم كأنهم أشقاء يتعاونون في الكثير من أمورهم المعيشية.

وقد رغبت في تدوين ما حفظته الذاكرة في هذا الكتاب، من الحكايات والطرائف، مما كان يروى على مسمعي من كبار السن، أو ممن عايشوها، لما فيها من وصف لبساطة العيش، وطيب النفس، ومحبة الضيف، وحفظ العهد والوعد، وصدق اللسان، وسعة الصدر، وتعاضد ومحبة أبناء القرى فيما بينهم، وغيرها مما تميزت به قرى جبل لبنان حتى أواسط القرن العشرين.

ولا ننسى دور الحكايات والطرائف الشعبية، في إلقاء الضوء على أحوال وسبل عيش الشعوب، وعاداتهم الاجتماعية، وقيمهم الأخلاقية والإنسانية.

كما أنّي طعّمتها ببعضٍ من الحكايات، مما حققته ونشرته من إرث المرحوم عارف أبو شقرا، في كتاب «أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا»، الصادر في بيروت العام 2011.

مونتريال – كندا
آب /أغسطس 2024
أسامة كامل أبو شقرا

الشيخُ والحقنَةْ[1]

إبّان إحدى دورات انتخاب أعضاء مجلس النواب في لبنان، وقد كانت سنوات عمري لم تكن بعد تسمح لي بالاقتراع، سألت والدي، رحمه الله، قلت: على الرغم من أنّ عهد العبوديّة قد ولّى منذ زمن، فإنّني ألاحظ أن سلوك الكثير من الناخبين تُجاه المرشحين، يشبه إلى حدٍّ ما سلوك العبد تجاه سيده. فما الداعي لذلك يا أبتي؟

فأجابني قائلًا: سأروي لك يا بنيّ الحكايتين التاليتين، وعليك أنت أن تستخلص العبرة منهما بما أصبحتَ عليه من النُضج والقدرة على الفهم السليم.

الرواية الأولى، عن واحدٍ ممّن يصنّفون من الوجهاء:

كان معظم رجالات جبل لبنان، في القرن التاسع عشر، كثيرًا ما يرفضون الكشف عن سوءاتهم أمام الطبيب المعالج، ومهما كلّفهم الأمر، لأنهم كانوا يعتبرون ذلك إهانة لهم. وبقدر رفعة مقامه كان واحدهم يزداد تشددًا في ذلك.

وكانوا، كما تعلم يا بنيّ، ينقسمون إلى طبقاتٍ على رأسها أمير البلاد، فأمراء العائلة الحاكمة، فالأمراء بالوراثة فالمقدّمون و«البكوات[2]» و«المشايخ». أمّا الإقطاعيّون فكانت ألقابهم من ألقاب عائلاتهم التاريخية. بينما كان العامّة ينقسمون حسب القوة المادية والعددية للعائلة التي ينتسبون إليها.

ويروى أنّ أحد «المشايخ» أصابه مرضٌ من أنواع القولنج، ما جعله لا يستطيع إخراجَ الثَّفِلِ من أمعائه. ولمّا عاده الطبيبُ رأى أن علاجه الوحيد هو الحُقنة في الدُبُر. ولكنّ الشيخ رفض

---

[1] من حكايات الآباء والأجداد.

[2] جمع، بك، وهو لقبٌ تركي يعود إلى زمن السلطنة العثمانية. ولم يزل متداولا في كثير من البلاد العربية.

ذلك رفضًا باتًّا، على الرُّغم من أنّ الطبيب حذره من أنّ في رفضه هذا خطرًا على حياته.

ولمّا رأى المقرّبون منه أنّ حاله الصحية في تراجع مستمرّ، صار كلٌّ منهم يبحث عن الحلّ المناسب. إلى أن قال أحدهم: لقد وجدت الحلّ.

فسأله آخرُ: وما هو؟

قال: لا بدَّ من رسالة من أمير البلاد تحمل أمرًا منه إلى الشيخ بوجوب إجراء الحقنة.

قال آخر: ومن سيذهب إلى الأمير ليطلب منه ذلك؟

قال صاحب الرأي: لا لزوم لذهاب أيّ منّا، فالأمر لا يستدعي أكثر من تمثيلية بسيطة.

وبعد نحو الساعة، وصل إلى باحة الدار فارسٌ يمتطي فرسًا مطهّمًا، ويرتدي ثيابًا تشبه ما يرتديه رسلُ الأمير، ويحمل بيده رسالة ملفوفة على شكل رسائل الأمير. ولمّا ترجّل، طلب الدخول على الشيخ في الحال.

فأُدخل عليه من دون تأخير، وبعد إلقاء السلام، فتح الرسالة وقرَأَ:

من مقام أمير البلاد إلى عزيزنا الشيخ «فلان»، بلغنا أنّك تعاني من مرض القولنج، وأنّ العلاج الذي وصفه الطبيب هو الحقنة في الدُبُر، وأنّك ترفض ذلك. وعليه فقد أمرْنا رسولَنا، حاملَ هذه الرسالة، بأن يقوم بإجرائها لك فورًا كما وصفها الطبيب.

فقال الشيخ مكرهًا: علينا طاعة الأمير وتنفيذ أمره. ثم أَوْعَزَ إلى خادَمِه بتحضير ما يلزم.

فبدأ «الرسول» بتنفيذ المهمّة. ولكن يبدو أنّه إمّا لم تكن لديه الخبرة الكافية، أو أنّ هيبة الشيخ جعلته يُخطئ بضع مرّات في إدخال الحقنة. فإذا بالشيخ، وبدلا من أن يعود إلى الرفض، أو أن يطلب استبدال الرسول بمن هو أقدر منه، فقد أخذ الأمر بالفكاهة، قائلا: توقف أيها الرسول، وأعد قراءة الرسالة، كي

نتحقق من صيغة الأمر، فهل هو إجراء الحقنة، أم فتح دُبرٍ ثانٍ في قفانا؟

والرواية الثانية، عن واحدٍ من عامّة الشعِبْ:

يُروى أن أحدهم، وكان يدعى «مبروك»، كان يعمل «خادمًا» لدى أحد «البكوات». وكان «مبروك» هذا لا يقوم بأي عملٍ ما لم يُؤمر عليه، حتى وإن كان يخصّه هو شخصيًّا، إذ يبدو أنه نشأ وتربى على ما يشبه العبودية، على الرّغم من أنّه لم يكن عبدًا.

ويروى أنّه في إحدى الليالي، استيقظ والعطش قد جفّف فمَهُ ولسانَه. وعوضًا عن أن ينهض من فراشه ليذهب إلى حيث يطفئ عطشه، أخذ يردّد بصوت مسموع، قائلا: «يا من يقول لي: قمْ اشربْ». ويشاء القدر أن يسمعه سيدُه. فناداه بصوت الآمر بالحضور: «مبروك».

فانتصب «مبروك» على قدميه وسارع إلى الوقوف بين يدي سيده، وهو يقول: «نعم سيدي».

فقال «البك»: اذهب واحضر كوبًا من الماء.

وما هي سوى لحظات، حتى عاد «مبروك» يحمل الكوب بيده ويقدّمه إلى سيده. فقال له، هذا الأخير: اشرب ما فيه فورًا.

وقبل أن يشرب، قال: أمركَ سيّدي. ثم شرب حتى ارتوى. عندئذٍ قال له سيده: عُد الآن إلى فراشك.

رحمة الله عليك يا والدي الحبيب، لقد فهمت ما قصدت، فمن يسعى وراء المراكز، أو المحافظة عليها، أو من كان فقيرًا جاهلًا، فمن الصعب عليه أن يكون حرًّا في رأيه، لأنه اعتاد التزلّف أو العبودية. وكما يقول المثل الإنكليزي: «رجال المناصب عبيد للملوك والشهرة والعمل».

ورحم الله من قال: «لو أمطرت السماء حرية، لرأيت بعض العبيد يحملون المظلات».

«آخ قتلتني يا شيخ»

حتى أواخر النصف الأول من القرن العشرين، لم تكن معظم قرى جبل لبنان، تخلو ولو من عائلة واحدة من أبناء الطائفة اليهودية اللبنانيّين. ولم تكن تلك العائلات تختلف في عيشتها وعاداتها عن سائر أبناء قراه سوى في طرق العبادة.

ويروى أن أحدهم، وكان يدعى موسى، كان يتقن مهنة «تطعيم الأشجار»[1]، وكان أصحاب البساتين يكترونه لتلك الغاية. وفي أحد الأيام اكتراه، للغاية عينها، أحد كبار أصحاب الأملاك ووجهاء قريته، وكان يدعى فؤادًا. ويبدو أنّ سوء تفاهمٍ حصل بينهما إبّان قيام موسى بعمله، لسببٍ ما، أدّى إلى تبادل الإهانات والشتائم فالصياح، ثم إلى التضارب بالأيدي، وتطور إلى عراكٍ وتقاتل بشراسة. وبدأت الغلبة تميل لمصلحة موسى، الذي كان يصغر فؤادًا ببضع سنوات، ويتمتع بقوة جسدية تفوق قوة خصمه.

وكان، في الوقت عينه، صياحهما قد وصل إلى مسامع أهل القرية، فانطلق بضعة من شبّانها، يجرون مسرعين متجهين نحو مصدر الصوت، لاستكشاف الأمر. فكان لوقع أقدامهم وهمهماتهم وتساؤلاتهم، جلبةٌ لامس ضجيجها آذان المتقاتلَين. وقبل بلوغهم ساحة المعركة، كان موسى قد طرح فؤادًا أرضًا وراح يكيل له الصفعات واللكمات. ولكنّه ما أن شعر باقتراب شباب القرية، حتى أمسكه بذراعيه، ثم انقلب على ظهره، وقلبه معه ليصبح فوقه، وكفَّ عن ضربه. ولم يكتفِ بذلك، بل راح يطلب الرحمة والصفح من فؤاد، وهو يردّد قائلًا: «دخيلك يا شيخ فؤاد، يكفي، آخ قتلتني يا شيخ، يا شباب الحقوني وخلصوني منه قبل ما يقتلني».

---

1 لعلهم اشتقوها من «أَطْعَمْتُ الغُصْنَ إِطْعامًا إذا وصَلْتَ به غُصْنًا من غير شجره،» (لسان العرب).

استغاثة موسى تلك وحيلته، أيقظتا كبرياء فؤاد وكرامته وعنجهيته، وجعلتاه يتجاوب، ومن دون تردد، مع طلب شابين أمسكا به لإنهاضه ورفعه عن صدر موسى، فانتصب على قدميه، رافعًا رأسه، شامخ القامة وكأنه هو المنتصر.

وهكذا ضمِن موسى، بذكائه ودهائه، عزوف فؤادٍ عن إظهارِ الألم أو التذمر جرّاء ما أصابه من ضرباتِ ولكماتِ، وسلِم، بالتالي، من غضبِ شباب القرية وأهلها وردات فعلهم.

«بَرَزَان» الشعير

كانت العامّة، في القرن الماضي، تطلق اسم «البرزان» على البوق وهو الآلة الموسيقية التي تعرف بالفرنسية ب trompette، والتي كانت ولم يزل لها استعمالات مختلفة في الشؤون العسكرية والحربية، كإطلاق النفير والإنذارات والتعليمات، إلى جانب تحية العلم وغيرها. ولكلٍّ من هذه الحالات لحنٌ موسيقيٌّ خاصٌّ، يعلم منه الجندي ما يجب عليه فعله فور سماعه نغمة اللحن المنطلقة من البوق. وكانت العامّة تقول، عند سماعهم صوت البوق: «ضَرَبَ البَرَزَان».

وأيام كانت الجيوش تعتمد على الدواب كوسائل للنقل والانتقال، كان لكل تحرّك من حركات هذه الدواب لحنٌ خاصٌ أيضًا. فكان الزمّار يطلق العنان لبوقه باللحن المناسب حسب أمر القائد.

ويروى أنّ الجيوش العثمانية، إبّان مسيرتها في صحراء سيناء، بقيادة جمال باشا في حملته على مصر، في الحرب العالمية الثانية، واجهتها مشكلة شحّ المؤن الغذائيّة، بما فيها الشعير المخصّص لغذاء الخيول والبغال، ما اضطرّ المسؤولين إلى اعتماد التقنين في توزيع معظم تلك المواد، بما فيها الشعير المخصص للبغال. فكان أن أنهكَ الجوعُ هذه الأخيرة، فراحت تتباطأ في السير. فحضر الضابط المسؤول عن النقل بين يدي الباشا، وقال: يا جناب الباشا، لقد أرهقَ الجوعُ البغالَ فأخذت تقصِّر في المسير، وبرنامجُ التقنين لا يسمحُ لنا بإطعامها قبل ساعة من الآن.

فقال له الباشا: اطلب من الزمَّار أن يضرب لها «برزان الشعير»، كلّ ربع الساعة.

وكان التكرار قد علّم البغال على أنّها ستحصل على الشعير بعد سماعها هذا «البرزان» بفترة زمنية محددة، فتسرع في

المسير. وهكذا انطلت حيلة الباشا على البغال التي صارت تسارع الخطى في كلّ مرّة تسمعُ فيها صوت «برزان الشعير»، حتى ساعة إطعامها حسب برنامج التقنين.[1]

[1] روى لنا هذه الحكاية أستاذ التاريخ، المرحوم محمود درويش، في مرحلة دراستي الثانوية.

حية في «شروال»[1] سليم[2]

في أحد أيام الصيف من أربعينيات القرن العشرين وكعادتِهْ، غدا سليمٌ باكرًا بالذهاب إلى قطعة أرضٍ زراعيّة ورثها عن أبيه، في خَراج قريتِه في جبل لبنان، كي يتابع الاعتناء بما عليها من الشجر المثمر، كالتّينِ والزّيتون والعنب والخوخ والتفاح وغيرِه، وما زرعه من الخُضْرَةْ.

وكان لم يزل يرتدي «الشروال» اللبناني ككثيرين من أترابه. لم يحمل معه معولا أو رفشًا أو غيرَه من الأدوات التي يحتاجها المزارع عادة في عمله، فهو معتادٌ، كغيره من أبناء الجبل، أن يترك أدواته تحت شجرةٍ في إحدى زوايا الأرض التي سيؤمها في الغد، لإكمال ما بدأه من العمل في يومه، سواء من الرّيّ أم غيرِه، حسب المواسم. وهو كسائر أبناء الجبل، مطمئنٌّ إلى عدم ضياعها أو سرقتها، إذ كان الأمان يعمُّ لا قريتَه فقط، بل الجبلَ بأكمله، فلا لصوصَ في قريته أو حتى غرباء، ومعظمهم تربط بينهم روابط القربى أو النسب. وإذا احتاج أحدهم إلى أيّ من الأدوات فسيستعيرها من جاره، حاضرًا كان هذا أم غائبًا، ثم يعيدُها إلى مكانها فور انتهائه منها، ولذا كان جُلّ ما يجلبه أحدُهم معه هو بعضٌ من الزّاد ليقتاتَ به حتى عودتِه إلى منزله، ظُهرًا أو مساءً حسبما تدعو حاجة العمل في الأرض.

وصل سليمٌ إلى أرضه، بعد مسيرة نحو نصف الساعة، على طريقٍ متعرّجةٍ تنحدر نزولا. ولم يطُل به الوقت، بعد مباشرته عمله، حتى أحسَّ فجأة بحركة غريبة في «بحر شروالِه»، فتحسّسه من خارج القماش وإذا بيده تمسك ما يشبه القضيب الطري، فشدّد قبضته عليه قائلا بأنَّها حيّة. فانطلق يجري

---

[1] الشروال، لغة في سروال وهي كلمة معربة من «شلوار» بالفارسية.

[2] نشرت في مجلة المستقبل الكندي عدد حزيران 2020 السنة الرابعة.

مسرعًا صعودًا متّجهًا نحو القرية وهو يصيح: حيّة... حيّة... حيّة.

ولمّا اقترب من منزله وكان قد أحسّ بتعبٍ شديدٍ يكادُ يُوقفُ قلبه، جلس القُرفصاء ووضع رأس الحيّة على صخرةٍ صغيرة مستوية كالبلاطة، وأخذ حجرًا بيده الأخرى وراح ينهال ضربًا على ذلك الرأس. وكان، في الوقتِ عينه، قد لبّى نداءَه بعضُ أبناء القرية، وتجمّعوا حوله. وعندما تأكّد من إعدام الحيّة، أدخل يده في سرواله ليسحب «جُثتها»، وإذا بيده تخرجُ ممسكةً ببصلة خضراء. فتعالت من حوله الأصوات بالضحك والقهقهة وبعضِ كلمات السّخرية والتّهكم.

فتذكّر بأنّ ما حمله ذاك الصباح من زاد، كان رغيفًا من الخبز بيده، وبصلة خضراء بكامل أوراقها وضعها تحت زنّار «الشروال». فلمّا انزلقت إلى «بحر الشروال» تسبّبت له بتلك الفضيحة بين أبناء القرية.

شاي سعيد[1]

اعتادَ يوسُفُ واثنان من أترابه، في أربعينيّات القرن العشرين، أن يقضوا، في دكّان قريبهم سعيد في ساحة إحدى قرى جبل لبنان، بعضًا من الوقتِ بعد فراغهم من أعمالهم في أراضيهم الزراعية.

وكانوا يتحادثونَ ويتناقشونَ في أمورٍ متفرّقة، وبخاصّةٍ في السّياسة العالميّة وما يدور بين قطبي الشّرقِ والغرب، الاتّحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأميركية، وفي السّياسةِ العربيّة واللبنانيّة من دون أن ينسَوا، بالتّأكيد، شؤونَ قريتِهم وأبنائِها.

وكان سعيدٌ كثيرًا ما يشاركُهم الأحاديثَ في الأوقات التي يكون فيها دكّانُه خاليًا من الزّبائن، وما أكثر تلك الأوقات، إذ أنّ كثافة سكّان القرية ليست كما هي في المدينة كي يؤمَّ الدكّانَ ذلك العدد من الزبائنِ الذي من شأنِه إشغالُه الوقتَ كلّه.

وغالبًا ما كان موضوعُ النّقاشِ بين الثّلاثةِ يؤدّي إلى ارتفاعِ أصواتِهم وحِدّتِها، ولكن، من دون أنْ يُفسِدَ ما يربِطُ بينهم من الوُدِّ والمحبّة، فتراهم يفْتَرِقون في نهاية جلْسَاتهم، أقرباءَ مُتَحابّين لا يُعكِّر اختلافُ الرَأي صفوَ علاقاتِهم، ومتواعِدِين اللقاءَ في الغدِ أو بعدَه.

وكان سعيدٌ معروفًا لدى الجميعِ بظُرْفِهِ وحبّهِ للفُكاهةِ والدُّعابَةِ وتدبيرِ «المقالب» المُضْحِكَة، حتّى ولو كانت معَ أقربِ المقرّبين إليه. كما أنّه مضيافٌ لا ينسى يومًا تقديمَ الشّايِ أو القهوةِ لضيوفِه في الدُّكّان، مما يصنعُهُ بيديْهِ، مستعينًا في ذلك بـ«بابور الكاز».

وفي أحدِ الأيّام حضرَ يوسفُ إلى الدكّان. ولكن وبعد الانتظار لبعض الوقت، لم يَحضَرْ أيٌّ من رفيقيه؛ فقام سعيدٌ كعادته بتحضير الشّاي لضيفه، الذي تربِطُه به رابطة النسب، ولكنّه هذه المرّة رغب في مداعبته، فدَسّ في الكأس مقدارَ مِلعقةٍ من

[1] نشرت في مجلة المستقبل الكندي عدد 2020/11/24.

«المِلح الإنكليزيّ»، وزاد في كميّة السّكر ليُخفي اختلاف الطّعم. (و«المِلحُ الإنكليزيُّ»، حسب تَسْمِيَةِ العامّةُ، دواءٌ يشبه مِلح الطعام، يُذابُ بالماء ويُشرَبُ لتليينِ الثَّفْلِ الشَّديدِ اليُبُوسَةِ وتَسهيلِ إخراجِهِ من الأمعاء. وقد يُسمَّى، أيضًا «شَربَة مِلح إنكليزي»).

وبعدما احتسى كلّ منهما ما في كأسه بوقتٍ، قدَّره سعيدٌ كافيًا لبدْءِ مفعولِ «المِلح الإنكليزي»، راحَ يقصُّ على ضَيفِهِ «الخالْ يوسفْ»، الحكاياتِ والقَصصَ المُشَوّقَة. وكان هذا الأخيرُ قد بدأ يشعرُ بحركاتٍ غيرِ اعْتِيادِيَّةٍ في أمعائِه، فصارَ يتمَلْمَلُ على مَقعدِه. وكلّما أرادَ الانصراف، كان سعيدٌ يخترعُ له الأساليب ليستبقيَه وقتًا أطول، إلى أنْ تأكّد من أنّ «المِلح» قد فعل فعله.

فقام يوسُف، وبِدُه على مَعِدَتِه، وخرج من الدكّان متوجّها إلى منزلِهِ، مُتثاقِلَ الخُطى خوفًا ممّا لا تُحمَدُ عُقْباه. ولمّا توارى، يوسفُ قليلًا، نادى سعيدٌ أحدَ الأولادِ الذين كانوا يلعبون بالقرب من دكّانه، وقال له: اذهبُ مسرعًا إلى منزلِ «الخال يوسُف» وقلْ لزوجتِهِ بأنّه قد اشترى ظَرْفًا من السّمْنِ الحَمْويّ الفاخِر، وبينما هو في طريقِهِ إلى البيت، تبيّنَ له أنَّ الظَّرفَ مثقوبٌ وأنّ السّمنَ بدأ يسيلُ منه، فهو بحاجة إلى وعاءٍ يحفظُ ما تبقى في الظَّرفْ.

حملت الزوجة «لَكَنًا» من النُحاس المُبَيَّض، وتوجَّهتْ مُسرعةً لملاقاة زوجها، وإذا بها تراه يسير ببطءٍ ملتصقَ الرِّجْلينِ يلُفُّ الواحدةَ أمامَ الأخرى، ووجهُهُ يكادُ يتفجّرُ الدّم من مسامِ جلدته. ولمّا رآها صاحَ بصوتِ المُتألّم: لقد فَعلَها سعيدٌ هذا ال... وراحَ يَكِيلُ له الشّتائم متوعدًا بأنّه سيُدفِّعُهُ ثمنَ فعلتهِ هذهِ غَاليًا.

فأدارت الزوجةُ وجهها، مُحاوِلَةً كتمَ صوتِ ضحِكِها، اتِّقاءَ غضب زوجها. وسبقته إلى المنزل لتحضير ما يلزمُ لمُعالجَةِ نتائجَ دُعابةِ سعيد.

«حلا والقَيْمَة»

من عادات أبناء جبل لبنان المتوارثة في الأعراس، أن يذهب العريسُ بموكبٍ، يضمُّ الكثير من أقاربه وأبناء قريته، «لردِّ العروس» أي لإحضارها من منزل ذويها إلى منزلها الزّوجي. وقبل توفّر السّيارات ووسائل النّقل الحديثة كان يتمّ الانتقال سيرًا على الأقدام، حتى ولو كانت العروس من غير قرية العريس، وكانوا يصحبون معهم فرسًا مزينةً مجلّلة لتليق بحمل العروس على ظهرها. وكانت أصوات الموكب لا تنقطع عن «الِحدا»[1] والزغاريد، والأهازيج والغناء ذهابًا وإيابًا. وإذا كانت العروس من غير قرية العريس فكانت العادة تقضي بأن يكون في عداد الموكب شخصٌ قويّ الجسم يمكنه «رفع القَيْمَة». و«القَيْمَة»، وقد تسمى «العَمْدَة» في بعض المناطق، كانت عبارة عن قطعةٍ منحوتةٍ من حجر ثقيل غالبًا ما تكون جُرنًا، كجرن الكبّة، في نقرته عودٌ معترضٌ يسمونه«خابورًا»، أو «مدحلة[2] سطح»، (ومنهم من يقول«محدلة») كانوا يرصُّون بها أسطح البيوت الترابية في الشتاء لمنع«الدَّلْف»[3]، وكان يتولى إحضارَ هذه«القيمة» شابٌ من قرية العروس، وبعدما يطرحها أرضًا يعود ويرفعها فوق رأسه أمام رفاق العريس، وكانوا يسمونهم«العرسية»، ثم يرميها وينتظر أن يقوم أحدُ هؤلاء برفعها كما فعل هو. وإن لم يتمكن أيٌّ منهم من ذلك، تتم «ردَّةُ» العروس من دون الأهازيج والزّغاريد، ويغادر الموكب صامتًا إلى ما بعد حدود القرية. وكان «رفع القيمة» يتكرر عند مدخل

---

1 يطلق العامة اسم «الحدا» على نوع من الغناء يرددونه في المواكب. ويبدو أنها مأخوذة من: حدا يحدو حدوًا، والحَدْوُ سَوْقُ الإبِل والغِناء لها.

2 لعلها اشتقت من الدَّحْل: المطمئِنُّ من الأرض (مقاييس اللغة). وهي أسطوانة صخرية ملساء يتراوح قطرها بين 30 و40 سم. وطولها من 70 إلى 80 سم. قد يزيد وزنها عن 50 كيلوغراما تلقط من جنبيها بقضيب حديدي معقوف تدحرج بواسطته فوق تراب السطح ويسمى «معوس» أو «ماعوس».

3 أي تسرب مياه الأمطار عبر تلك الأسطح إلى داخل المنزل.

كلّ قريةٍ أو بلدةٍ قد يمرُّ فيها الموكب. وإن رُفعت «القيمة» رافق أبناءُ هذه البلدةِ الموكبَ بالأغاني والزّغاريد حتى حدود بلدتهم، وإلّا أكمل الموكب سيره صامتًا، ومن دون أي مرافقة، إلى ما بعد حدود البلدة. ومع الأيام وتوفر وسائل النقل أصبح يقتصر «رفع القيمة» على بلد العروس إلى أن انقرضت هذه العادة كليًّا في خمسينيات القرن العشرين. وكانت عماطور أول بلدة تلغيها. ويعود ذلك إلى القوة الجسدية الخارقة لأحد أبنائها، الشيخ أبو علي بشير أبو شقرا، لأن «القيمة» التي كان يرفعها، كان من المستحيل على غيره أن يرفعها.

وقد حصلت هذه الحادثة الطريفة[1] إبّان حقبة التّخلّي عن تلك العادة:

انطلق «العرسية» من كفرنبرخ، «لردِّ عروسه» من «مزرعة الشوف» التي تبعد عن «كفرنبرخ» نحو العشرة كيلومترات. كان الموكب مؤلفًا من بضع سيّارات و«بوسطة» (حافلة) واحدة. وفور انطلاقهم أطلق السّاقة العنانَ لأبواق السّيارات، كعادة، يبدو أنهم استعاضوا بها عن الأهازيج والأغاني و«الحِدا» يوم كانت مواكبهم راجلة.

وعندما اقترب الموكب من منزل العروس أُوقفِت السّياراتُ وترجّل راكبوها، وبدأوا بالأغاني والأهازيج على ألحان «الدربكة» و«المجوز» إلى أن بلغوا باحة المنزل فتوقفوا على بعد بضعة أمتار من بابه الرئيسيّ، كما كانت تقضي الأعراف. وكان المنزل يعجُّ بالأقارب والأصدقاء من أبناء تلك البلدة. فخرج والدا العروس ومن حضر من وجهاء العائلة لاستقبال القادمين. فبادر هؤلاء، بصوتٍ واحدٍ يردّدون كلماتِ والد

[1] حكاية حقيقية رواها لي أحد من عايشوها من أبناء عماطور. وكان العريس من أبناء «كفرنبرخ» ولكني نسيت اسم قرية العروس. ولأن الراوي قد توفاه الله فقد نسبتها إلى «مزرعة الشوف». كتبتها بتصرف ووضعت لأشخاصها أسماء مستعارة. ومنهم من قال بأن من أسميتها «حلا»، كانت من عماطور وزوجها من كفرنبرخ.

العريس من عبارات التّحيّة والسّلام والسّؤال عن الخاطر، وأهلُ الدَّار يجيبونهم بعبارات الشّكر والتّرحيب والتّأهيل، وكلّها بجملٍ منمّقة متوارثة عن السّلف، وكان لكلّ جملة جوابها. حتى إذا فرغوا من هذه المجاملات دعا المستقبلون القادمين إلى الدّخول، فدخل مع العريس والداه وكبارُ الوفد، بالمقابل خرج الشّباب من المنزل إلى الباحة لإخلاء المقاعد للضيوف، ولمشاركة سائر القادمين بالغناء والأهازيج و«الدبكة».

لاحظ سُليمان، أحد كبار القادمين، وجود «جرنٍ» بإحدى زوايا الباحة، فأيقن أنّ أهل العروس ينوون طرح «القيمة»، الأمر الذي سها عنه «العرسية» لأنّهم كانوا قد تخلّوا في قريتهم عن هذه العادة، أسوة بالكثير من قرى الشّوف، ولذا لم يصطحبوا من يقوم بهذه المهمّة. ولكنّه تذكّر أنّ من بين أفراد الموكب امرأةً، تُدعى «حلا»، ذات بُنية قويّة تضاهي قوّة أشدِّ الرّجال. فأرسل من يطلب منها معاينة «القيمة» وما إذا كانت تستطيع رفعها، فعاد الرسول بالجواب الإيجابيّ.

بعد قيام أهل المنزل بواجب الضّيافة، توجّه والد العروس، كما تقتضي العادات والتقاليد، إلى ابنته وأقامها عن كرسيّها ثم أمسك بذراعها الأيسر وتوجّه الاثنان نحو العريس ووالده، كما تقدم العريس بدوره وصافح حماه وتسلّم منه يد عروسه وهو يجيب على وصايا ه، بالتّعهّد برعايتها والاهتمام بشؤونها كقوله: ستكون في قلبي وعينيّ. ثم تأبّط ذراعها وسار الجميع نحو الباب الخارجي.

وما أن وطئت أرجل العروسين ووالدَي العريس أرض الباحة، حتّى ظهر شابٌ من أقرباء العروس حاملًا «القيمة» فطرحها أرضا ثم عاد ورفعها بيديه الاثنتين فوق رأسه ثم رماها أرضًا. فوجئ «العرسية» بذلك، وراح كلٌّ منهم يجيل ناظريه في وجوه الآخرين، صامتين لا يدرون كيف الخروج من هذا المأزق. فإذا بحلا تخرج من بين المحتفلين، وتقول بصوت الواثق من أمره: عذرًا يا شباب كفرنبرخ، ويا مشايخ

«المزرعة» الكرام، إنَّ هذه القيمة ومثيلاتها ليست لرجالنا، بل هي لنسائنا.

فتقدمت منها وأمسكتها كما فعل ذلك الشاب ورفعتها فوق رأسها ثم عادت وطرحتها أرضًا. فعلا التّصفيق ممزوجًا بعبارات التّكريم والتّمجيد بحلا ومثيلاتها من النّساء.

وهكذا غادر موكب العروسين ذاك المنزل والبلدة عائدًا إلى «كفرنبرخ»، بـ«الحدا» والأهازيج والأغاني والموسيقى. ولم ينسَ السّاقة، أيضًا، أبواق سياراتهم.

الثلاث شعرات[1]

في أوائل القرن العشرين لم يكن يوجد في كثيرٍ من القرى الجبلية النّائية سوى دكّان واحد، أو اثنين وأحيانًا ثلاثة بحسب كثافة سكّان كلٍّ منها. وكان الدّكّان يحوي كمية متواضعة من معظم ما يحتاج إليه أبناء القرية لمعيشتهم اليومية. وكان صاحبه يذهب، إلى أقرب مدينة منها، لشراء بضائعه مرّة أو مرّتين في الشهر، لصعوبة الطّرقات وقلّة وسائل النقل، التي لم تبدأ بالتزايد إلا في عشرينيات ذلك القرن. أمّا القرى النّائية فبقيت تعتمد على الدّواب و«الطّنابر»، وهي عربات تجرّها البغال، للانتقال والنّقل، إلى أن شُقَّت الطّرق التي وصلتها بالبلدات الكبرى، التي كانت سابقًا متّصلة بعضها ببعض، بطرقات كانت، قبل السيارات، مخصّصة لسير عربات الخيل و«الطنابر».

كان الشّيخ صبحي يعيش في إحدى تلك القرى النّائية ويملك الدكّان الوحيد فيها. وقد عُرف بالنّزاهة والورع والتّقوى. وكان يقصد مدينة صيدا مرَّة كلَّ شهر للتّبضّع. وكان معتادًا أن يقوم بجولة على عدد من تجّارها، الذين يتعامل معهم منذ عدة سنوات، ليختار ما يحتاج إليه ويُبقي عند كل منهم ما اشتراه أمانة إلى أنْ يُكمل جولته، فيكتري «طنبرًا» لجمع ما اشتراه ونقلِه إلى مكان وقوف العربة التي ستنقله هو وبِضاعته إلى أقرب بلدة من قريته، ثمَّ يكمل النّقل على ظهور الدّواب.

وفي أحد الأيّام، وبعد إنهائه جولته المعتادة، وكان قد اشترى حاجات الدكّان التي جاء لشرائها، إذا بسِلعة، تُلفت نظره، معروضة أمام أحد المتاجر من غير عملائه. ولما رآه صاحب المتجر واقفًا يتأمّلها دعاه إلى الدّخول وأخذ يشرح له محاسن هذه السِّلعة الجديدة، وأنّها ستصبح قريبًا ممّا يحتاج إليه كلُّ منزل. وكان الشّيخ صبحي، بنباهته قد اقتنع بأنّها ستصبح من

---

[1] من حكايات الآباء. الأسماء الواردة في هذه الحكاية مستعارة. نشرت في عدد 2021/3/1 مجلة المستقبل الكندي – السنة الخامسة.

الضروريات في مدة وجيزة جدًّا. ولكن، ما العمل إذ لم يبقَ معه من المال سوى ما يكفيه كلفة العودة إلى قريته. فحاول التنصّل، ولكنّ التّاجر الذي أدرك، بخبرته الطّويلة، أنّها أعجبته راح يزيده ترغيبًا فيها من دون أن يعرف سبب تردّده.

عندئذٍ قال الشيخ صبحي: يا صاحبي إنّي مقتنعٌ فعلا بجدواها، ولكنّني قد أنفقت كلّ ما كان لديّ من مال ثمنًا لما اشتريته من البضائع، ولولا ذلك لاشتريت منها كمية لا بأس بها.

قال التّاجر: سأمهلك مدّة أسبوع لتسديد الثمن مقابل رهنٍ ضامن.

قال الشّيخ صبحي: أنا ابن قرية نائية وليس بإمكاني العودة إلّا بعد نحو الشهر من اليوم.

قال التّاجر: لا بأس ما دمت ستترك عندي ما يضمن لي حقي.

قال الشّيخ صبحي: ليس عندي ما يضمن دينك سوى عهدي وثلاث شعرات من لحيتي، فإذا وافقك هذا فأرجو أن تعطيني منديلًا نظيفًا يحفظهن ويحميهن.

فوجئ التّاجر بهذا العرض إذ لم يسبق له أن سمع بمثله أبدًا. وبعدما صمت قليلًا قال: إنّي أتوسّم فيك، أيّها الشّيخ، رجلا يحفظ العهد والوعد ولذا فإنني أقبل ضمانتك ومن دون تحديد سقف للكميّة التي تريد شراءها، وإليك المنديل الذي تطلب.

أخذ الشّيخ صبحي المنديل وبسطه فوق مكتب التاجر، ثم نتف ثلاث شعراتٍ من لحيته الواحدة تلو الأخرى وبكلِّ تأنٍّ ووضعهنّ على المنديل وطواه عدّة طيَّات بحيث تُحفظ الشّعرات جيدًا، ثم ناوله للتّاجر راجيًا إيّاه أن يضعه في مكانٍ آمنٍ ونظيفٍ، قائلًا: سيكون موعدنا بعد شهر من اليوم، إن شاء الله.

غادر الشّيخ صبحي المدينة ومعه ما اشتراه، بما فيه كميّة من تلك السّلعة الجديدة. وبعد شهر كامل من ذلك اليوم عاد إلى صيدا وكان أوّل تاجرٍ زاره هو من رهن عنده الشّعرات الثّلاث. وبعدما حياه طلب منه المنديل، ولما تأكّد من وجود الشّعرات وجودة حالتهنّ عبّر له بعدة كلمات عن شكره له وامتنانه على

محافظته عليهنّ، ثم نقده قيمة الدّين بالكامل، واعدًا إيّاه بأن يصبح واحدًا من عملائه.

سمع أحد أبناء قرية مجاورة لقرية الشيخ صبحي بهذه الحكاية. فذهب إلى ذلك التّاجر وطلب شراء كميّة من بضائعه بالدّين. ولمّا سأله التّاجر عن الضّمانة أمسك بعدّة شعرات من لحيته ونتفهنّ ومدّ يده ليسلّمه إياهنَّ. ولكن التّاجر لم يتناولهنّ وأبلغه برفض طلبه رفضًا قاطعًا وبأنّه يريد الثّمن نقدًا وعدًّا.

فسأله قائلًا: لقد سبق لك أن قبلت الضّمانة عينَها من الشّيخ صبحي ولم تكن تعرفه من قبل، فلماذا ترفضها مني؟

فأجابه التّاجر: أجل لقد حصل ذلك، ولكنّك لست كالشّيخ صبحي، وإنّي متأكدٌ من أنّني إذا ديّنتك فلن تعود إليَّ أبدًا.

قال: وما جعلك تعتقد هذا؟

أجاب: لما رأيت كيف يحترم الشّيخ صبحي شعرات لحيته، أيقنت أنّه رجلٌ صادقٌ يحفظ العهد والوعد. بينما لم تتوانَ أنت عن نتفٍ عشوائيٍّ لعدة شعرات، وكأنك تقلع الحشيش البرّي من أرضٍ زراعيةٍ صالحةٍ لترميَه بعيدًا عنها. ولذا أرجوك أن تشتري ما تريد من إيٍ من تجّار المدينة الآخرين.

كامل بك والعمامة[1]

كان كامل بك ابن خليل الأسعد، رجلًا من كبار رجالات لبنان في الرّبع الأوّل من القرن العشرين. وقد دخل التّاريخ كسياسيٍّ وزعيمٍ لمنطقة جبل عامل في جنوب لبنان إلى أن تُوفِيَ في العام 1924. وخلفه أحمدُ بك، وهو ابن أخيه عبد اللطيف، وصهرُه، زوج ابنته، وقد تولّى رئاسة مجلس النواب اللبناني عدة مرات. وبعد وفاته في العام 1961، خلفه في تلك الزعامة ابنه كامل بك، الذي تولّى أيضًا رئاسة المجلس المذكور لعدّة سنوات، وتُوفِيَ في العام 2010.

وقد روى لنا المرحوم رضا بك التّامر[2]، عن كامل بك، الأكبر، إذ كنّا يومًا في زيارة ابنه خالد أنا وعدد من أترابنا، وكنّا لم نزل في ريعان الشّباب، قال: كان كامل بك يقدِّر ويُجلُّ علماء الدّين كثيرًا ويخصُّهم بالتّكريم والاحترام، وكان إذا ما زاره أحدهم، يحتفي به بما لا يخصُّ به حتّى كبار زوّاره. وكان أولئك العلماء، في تلك الأيّام، يتميزون عن غيرهم من رجال الدّين بعمامة يزيدُها حجمًا طول القماش الذي تُلفُّ به، ما قد يبلغ الأربعين ذِراعًا. وفي أحد الأيّام، وكان البك في قاعة الضّيافة في الطّبقة العلوية من داره في الطّيّبة، جاءه أحد العاملين في الدار، مهرولًا، مُعلنًا أن هناك عالمًا أمام باحة الدّار يتجه نحو بابها. فنهض البك، ومن دون أن يُعطي اهتمامًا لمن كان معه في القاعة، ونزل الدّرج، مسرعًا الى الباحة لاستقبال الزّائر الكبير. فإذا به أمام رجلٍ ذي لحيةٍ وخطها الشّيبُ، يرتدي جلبابًا فضفاضًا، تزيد هامتَه وقارًا عمامةٌ بيضاء كبيرةُ الحجم، يمتطي

---

[1] نشرت في مجلة المستقبل الكندي عدد 2020/12/12.

[2] وقد كان أحد كبار القضاة في لبنان في خمسينيات القرن الماضي، تُوفيَ في العام 1974. كما كان صديقًا للمرحوم والدي.

أتانًا على عادة الزهّاد. وقد بدا للبك أن قدمي هذا الضّيف لم تطآ سابقًا أرض داره، وإلّا لتذكّر معالم وجهه من دونِ إبطاء. وما أن نزل هذا الوافد عن ظهر رَكوبتِه، حتّى أخذ كامل بك بيده وقبّلها، واصطحبه إلى قاعة الضّيافة، وعباراتُ التّأهيل لا تنقطع عن لسانه حتّى دخلاها، حيثُ خصَّه بمقعدٍ ملاصقٍ لمقعده زيادةً في الاحترام والتّكريم. وفورًا أخذ العاملون في الدّار يقومون بواجب الضّيافة. ولأن ذلك اليوم كان من أيّام الصّيف الحارّة، أُحضِرت الماءُ ليشرب هذا الزّائرُ المهمُّ أولًا ثم الظّمآنُ من الحاضرين، وكان صاحب الدّار أحد هؤلاء العطشى، وما أن ارتوى حتّى قال له ضيفهُ العالِمُ، برأسٍ مرفوع وصوتٍ عالٍ: (يا مولانا «هنيقا»)، بالقاف عوضا عن الهمزة. فما كان من البك إلا أن انتفض وانتصب على قدميه، وتوجّه إلى ذلك «العالم» قائلًا: جعلتني أركض لاستقبالك وأقبّل يدك وأكرمك كما أكرِمُ كبار العلماء، ثم تقول لي «هنيقا»!؟ وراح يكيل له ما تيسر من كلمات التأنيب، ثمّ أخذ العمامة عن رأسه وناولها أقرب رجاله آمرًا إياه فك قماشها وطرحه أرضًا، وهو لا ينفكُّ يردد بسُخرية: «هنيقا»!؟ «هنيقا»!؟ وقد زاده غضبًا طول القماش الذي قارب الاربعين ذراعا، فطرده شرّ طردة.

ثم أردف رضا بك قائلًا: فيا أبنائي إيَّاكم أن تغرَّكم المظاهر، فالإنسان بأصغريه، قلبه ولسانه، لا بما يرتديه من الثياب.

رحمة الله عليك يا رضا بك، فلو كنت اليوم حيًّا لأضفت بأن: لا «العمامة» مهما كبرت ولا اللحية الطويلة أو العريضة ولا الجبّة الفضفاضة علامة العلم الوفير والتبحّر في شؤون الدّين. وكما قال ابن رشد: «اللحية لا تصنع الفيلسوف»، وكما قال الشاعر: «وما كلُّ من قرأ الكتابَ فهيمُ».

عشق التقاتل في سبيل الآخرين[1]

بعد أن تغلب القيسيون على اليمانيين، في معركة عين دارة في 1711م.، ولما لم يكن في مصلحة الحاكم أن تكون البلاد عصبية واحدة أو حزبًا واحدًا عمد الأمير حيدر إلى تشجيع انقسام جديد في بلاد الجبل، وهو الانقسام الشقراوي الصمدي نسبة إلى الأسرتين اللتين إلى الآن تسكنان في بلدة عماطور من قرى الشوف المعني. وعرف هذا الانقسام الثاني (بالغرضية) فانقسم اللبنانيون إلى غرضية شقراوية وغرضية صمدية. وقد تناول هذا الانقسام المدة الباقية من حكم الأمير حيدر وطوال مدة الأمير ملحم إلى أن ولي الأميران أحمد ومنصور الشهابيان معًا، فنشأ انقسام جديد عرف بالجنبلاطي واليزبكي نسبة إلى آل جنبلاط وإلى آل يزبك جد آل عماد. فتقمصت الغرضية الجنبلاطيةُ الشقراويةَ وتقمصت الغرضيةُ اليزبكيةُ الصمديةَ باستثناء بعض العيال[2].

وفي خمسينيّات القرن التّاسع عشر وقع خلافٌ بين رجلين من عائلتين كبيرتين تربط بينهما روابط النّسب وتقيمان في قرية واحدة من قرى جبل لبنان، ولكنهما من غرضيتين مختلفتين، وكان السّبب تافهًا جدًا إذ إنّ أحدهما كان يحرقُ أشواكًا في أرضه فخرجت النّار من تحت سيطرته وامتدّت إلى أرض جاره فأحرقت إحدى الشجرات فيها. وتطوّر هذا الخلاف ليصبح تقاتلا بين أبناء العائلتين لم يوفّر فيه الطّرفان استعمالَ أيّ نوع مما كان بحوزتهما من السلاح، وفي ساعات معدودات سقط أحد عشر قتيلا من كلٍّ من الفريقين بالإضافة إلى عدد من الجرحى. ولكنَّ المفاجأة جاءت من قرية مجاورة بأن حمل أبناء إحدى عائلاتها أسلحتهم بغية التوجه إلى ساحة التقاتل، ومن دون

---

[1] كتبتها في 2012/12/23.

[2] أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا - تاريخ جبل حوران – تحقيق أسامة كامل أبو شقرا – بيروت – 2011.

معرفة سبب هذا التقاتل أو هدفَه، لنُصرة أصدقائهم أبناء إحدى تينك العائلتين، ثمّ ما كان من أبناء عائلةٍ أخرى من تلك القرية، والتي تربطها أيضًا صداقة مع أبناء العائلة المقاتلة الثانية، إلّا أن وجَّهوا بدورهم أسلحتهم نحو أبناء قريتهم قائلين لهم: «عوضًا عن أن نتكبّد مشقّة الانتقال كي نتقاتل في ساحة المعركة، فلنتقاتل هنا نُصرةً لأصدقائنا هناك».

ولكن العناية الإلهية حالت دون سفك المزيد من الدماء، عندما بدأت ذخائر طرفي التقاتل بالنّفاد، فتمكّن عقلاء ووجهاء الجبل من الفصل بينهما وإيقاف القتال. ثم أجلوهما إلى القرى المجاورة، إلى أن تمكنوا من عقد الصّلح بينهما.

وفي التحقيق عمّا دعاهم إلى إطلاق النار، أجاب كلٌّ من أبناء العائلتين بأنه لمّا رأى أبناء عمومته يطلقون النّار نحو أبناء العائلة الأخرى فعل هو الشّيء نفسه من دون أن يعرف السّبب.

يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} (الرعد 11). فهل سنغير نحن يومًا ما بأنفسنا؟؟؟؟

ما أشبه اليوم بالأمس[1]

يروي المؤرّخ المرحوم سليمان أبو عز الدين قائلا: «يوم الجمعة 19 آب سنة 1932 زُرتُ جرجس بك صفا من دير القمر المقيم في بيروت وهو واسع الاطلاع على تاريخ لبنان، خصوصًا ما اختصّ منه بعهد الأمير بشير الكبير وعهد المتصرفيّة الذي أدركه كلَّه، وهو قد ناهز التّسعين من العمر ولا يزال قويّ الذاكرة صافيَ الذهن».

ثم يقول إن جرجس بك، روى له، يومها، الحكاية التالية، قال: «حينما كان ناصيف بك الرّيّس موظفًا في حكومة جبل لبنان وكان له النّفوذ الأوّل عند المتصرّف، في أمر التّوظيف وغيره، جاء أحد زعماء شمالي لبنان يطلب تعيينه «قائمقامًا» في البترون وطلب من جرجس بك أن يتوسط له بذلك عند ناصيف بك، فخاطب جرجس بك صديقه ناصيف بك في ذلك فقال له هذا الأخير: إذا كان صاحبك يطلب هذا المنصب فيجب عليه أن يقوم بخدمة عامّة نتّخذُها وسيلةً لعرض أمره على المتصرف، وفي الشمال الآن ثلاثةٌ من «الطُّياح»[2] فدعه يقبض عليهم أو على بعضهم ويقدّمهم للحكومة لنوجد سبيلا إلى مكافأته على عمله. فأبلغ جرجس بك صاحبه هذا الكلام، أمّا هذا فأجاب: إنّي لو كنت قادرًا على القبض عليهم لما فعلت لأنّ نفوذي في بلدي يتوقف على ما يلتفُّ حولي من أمثال هؤلاء. بعد هذه الرواية قال لي جرجس إنّ أعيان بلادنا يستمدون نفوذهم من إقلاقِ راحة بلادهم لا من خدمتها بإخلاص».

---

1 نشرت في جريدة البلد عدد الجمعة 3 آب 2012

2 ومنهم من يسمّيهم «أشقياء»، وهم أشخاصٌ يفتعلون الخلاف مع أو بين مواطنيهم لغاياتٍ ماديّة شخصية أو مأجورين لمصلحة متنفذٍ ما.

ولكن ليت «رجال» السياسة في لبنان (لو كانوا رجالا!!؟؟) يكتفون حاليًا بما يشبه ما كان يفعله أسلافهم لما وصلنا إلى هذه الحال.

«إشرب نقطة»[1]

في أحد الأيّام الأُوَل من صيفِ عامٍ من أربعينيّات القرن الماضي، غدا فؤادٌ باكرًا كعادته إلى حقلته[2] في منبسطٍ دون القرية. إذ هناك الكثير من قرى جبال لبنان بُنيت على أعالي سفوحها، يفصلها عن الأنهار الجارية في الوديان، أراضٍ يسوونها جِلالًا[3] تُغرس أشجارًا مثمرة، وخلال هذه الأشجار يزرعون سنويًّا خضارًا وبقولا، وتُروى من أمواه ينابيع تتفجَّر من مجارٍ في جوف الجبال، تتغذى من الأمطار والثلوج.

بعد مسيرة نحو نصف السّاعة، نزولا على شِعابٍ[4] متعرجة بين البساتين، وصل فؤادٌ إلى حقلته وراحَ يتفقَّد أغراسها ونباتاتِها. لم يشعرْ بمرور السّاعات إلّا عندما أحسَّ بالعطش وبارتفاع درجة الحرارة، فنظر إلى الأعلى وإذا بالشمس قد قاربت بلوغ وسط السّماء. وتذكّر بأنّه لم يُحضر معه من المنزل زادًا أو ماءً لأنّه لم يكن يتوقّع أن يستغرق إنجازُ ما جاء من أجله، أكثر من ساعة من الزمن بينما لم يزلْ بعدُ بحاجة إلى وقت إضافيٍّ لذلك.

فترك حقلته قاصدًا ينبوعًا ليس ببعيدٍ عنها. وقد اشتهرت قريتُه بكثرة عيون الماء والينابيع فيها. وفي الطريق مرَّ بجانب حقلة قريبه حافظ، وبعد أن حيَّاه وردّ حافظٌ التّحيّة سأله هذا الأخير عن وجهته. وهذه عادةٌ من عادات الكثير من أبناءِ الجبل المتوارثة عن الآباء والأجداد. وهي ليست من قبيل التدخّل الفضولي كما يعتقدُ بعضُهم، بل تشجيعًا للمسؤول لطلب المرافقة أو المساعدة إذا كان بحاجةٍ إلى أيّ منهما.

---

1 نشرت في مجلة المستقبل الكندي - مونتريال عدد 15 نيسان 2021 السنة الخامسة.

2 الحقلة، قُراحٌ طيبٌ يزرع فيه. (محيط المحيط للبستاني).

3 الجلّ القطعة من الأرض ذات جدارٍ وحدٍّ معلوم. (محيط المحيط للبستاني).

4 والشِعْبُ بالكسر: الطريق في الجبل، والجمع الشِعابُ.

فأجابه فؤاد: إنّي ذاهبٌ إلى النّبع «لأشرب نقطة ماء».

ثم أكمل طريقه إلى أن بلغَ مقصدَه. ولمّا همَّ إلى الشُرب تذكّر أنّه قال لحافظٍ بأنّ غايته «شربُ نقطة ماء»، فإذا شرب أكثر فسيكون عندئذٍ قد كذب وهو لا يكذب، ولذا قفل عائدًا إلى حقلته. ولكنّ شعوره بالعطش قد ازداد مع ازدياد حرارة الشّمس. فقرر الذّهاب ثانية إلى النّبع.

وفي الطّريق كان حافظٌ لم يزلْ يعمل حيث صادفه في المرة الأولى، وإذا به يبادره سائلا: خير إن شاء الله إلى أين العزمُ الآن؟

فأجابه فؤاد: «رايح إشرب تإشبع»[1].

[1] إني ذاهبٌ إلى النبع لأشرب حتّى أرتوي.

«راسه طاير»

من المألوف جدًّا أن نرى نُتوءاتٍ صخريّةً تنبت في المنحدرات الجبليّة وتتفاوت حجمًا وشكلًا لتبلغ أحيانًا عدّة أمتار عموديًّا وبضعةً أفقيًا، يُسمّي الجبليّون اللبنانيّون واحدتَها «مِسَّار». وقليلا ما يخلو محيطُ أيٍّ من قرى جبالهم من مثل هذه «المساسير» سواءٌ في الوديان القريبة منها أم لتشكّل حدودًا او بلاطًا لممرات على طرق تقودُ إلى أراضيها الزّراعيّة.

ويُروى أنْ سمع يوما أبناءُ إحدى تلك القرى صوتَ استغاثةٍ ينبعث من إحدى نواحيها فكان «عاطف» أوّلَ المستجيبين. وقد عُرف ببساطة التّفكير، فانطلق يجري مسرعًا تُجاه مصدر الصَّوت. ولمّا بلغه رأى رجلا من أبناء القرية المجاورة مطروحًا أرضًا لا حَراك به والدّم يسيل من رأسه وبعضُ أبناء قريته يتشاورون في ما ينبغي أن يفعلوه. وقد أعلمَه أحدُهم أنّه سقط من أعلى «المِسَّار».

ولمّا لم يجد له دورًا، قفل عاطف يجري عائدًا إلى قريته لعلَّه يكون أوّلَ من ينقلُ النَّبأ. وقبل أن يبلغها التقاه بعضُ أبنائها، وقد كانوا قاصدين بدورهم مكان الحادث تلبية لنداء الاستغاثة.

فبادره أحدهم سائلا: ماذا في الامر؟

أجاب: لقد سقط أحد أبناء القرية المجاورة عن «المِسَّار».

فسأله: وماذا اصابه؟

أجاب: «ما صابه شي، بسْ راسه طاير»[1].

[1] ما معناه: لا شيء سوى أنَّ رأسه تحطّم بالكامل.

«عروس» فوزي[1]

في خمسينيّات القرن الماضي، كان فوزي في العشرينيّات من سنوات العمر، وكان لم يزلْ عازبًا يعيش في منزل والديه في قريتهم الواقعة على أحد أطراف سهل البقاع في لبنان. وعلى الرّغم من الجهد الذي بذله والده، وبوسائل مختلفة، في ترغيبه وحضّه على التعلُّم، إلّا أنّه، ولبساطة عقله وتفكيره، أصرَّ على ترك المدرسة والدِّراسة، مذ كان في الخامسة عشر. فصار والده يصطحبه إلى أرضٍ زراعيّة كان يملكها في ذلك السّهل الخصيب. وبعد بضع سنواتٍ، وكان قد أتقن فنون الزّراعة، أصبح المسؤول عن تلك الأرض، يقوم بمفردِه بالحرث والزرع والرّيّ والجني. يغدو إليها صباحًا ويعود مساءً، حسبما تقتضيه المواسم. ولم يكن يحتاج إلى أكثر من نصف السّاعة ليقطع المسافة، ذهابًا أو إيابًا، سيرًا على القدمين.

كانت والدته تزوّده، في معظم الأيّام، بما يحتاج إليه من الطّعام حتّى عودته مساءً. ولكن في الأحيان التي لم يكن فيها زادُه جاهزًا في الصّباح، كانت تُرسله إليه مع أحد أبناء الجيران أو الأقارب، من كانت وجهته منهم قريبةً من حقل فوزي.

وفي أحد الأيّام كانت الأمُّ منهمكة في أعمالٍ منزليّة منعتها من الطّبخ باكرًا، بخاصّةٍ أنّ وسائل التّبريد لحفظ الأغذية لم تكن بعد متوفّرة سوى لدى ميسوري الحال. وكي لا تترك ابنها من دون طعام، عمدت إلى تحضير «عروس» إدامها من مؤونة البيت. ثم كلّفت ابن الجيران بإيصالها إلى ابنها في الحقل.

---

[1] «العروس» تسمية عاميّة كانت تطلق على رغيفٍ من خبز الصاج (الخبز المرقوق) يطوى نصفين ويوزّع الإدام على أحد الوجهين ثم يلف ليصبح على شكل أسطوانة طولها مساوٍ لقطر الرغيف، ويسمّيها بعضهم: «كدّوشة» لأنّهم يعتقدون، خطأً، أن «الكدش» هو «القضم» بالثنايا وهي الأسنان الأمامية. والإدام ما يؤكل بالخبز.

ونشرت في مجلة المستقبل الكندي عدد 1 أيار 2021.

ولمّا بلغ ابن الجيران مقصده، تناول فوزي منه «العروس»، ومن دون أن ينبسَ ببنت شفة، أخذ يلتهمها بسرعة وبنهمٍ، تقوله لم يذُقْ طعم الزّاد أسبوعًا كاملًا.

هذا المنظر جعل ابن الجيران يتسمّرُ في مكانه شاخصًا بعينيه ناحية فوزي، وكأنّه يشاهد مسرحيّة وينتظر رؤية نهايتها.

ولمَّا انتهى فوزي من مضغ أخر لقمة من «وليمته»، تناول إبريق الفخار الذي كان علّقه بغصن شجرةٍ وارفة الظّلّ، ورفعه عاليًا فوق رأسه فاتحًا فاه ليعبَّ المياه المتساقطة كالشّلال من «زلُّومة»[1] الإبريق. وبعدما ارتوى أعاد الإبريق إلى مكانه ومسح شفتيه براحة يده ثم مسح يديه بثيابه.

ولمّا أُسدل الستار في نهاية هذا المشهد، سأله ابن الجيران مستفسرًا عن نوع الإدام الذي كان في «العروس». فأجاب فوزي قائلًا: لست أدري، فهل رأيتني فتحتُها لأرى ما فيها قبل أن آكلها؟

[1] «الزَّلُّومة» تسمية عاميّة لفتحة الأبريق الأمامية ذات الشكل الأسطواني المخروط ليُشربَ منها.

«بدبس يا لبيبة»[1]

كانت مادّة السُّكر، في الرّبع الأوّل من القرن العشرين، عزيزةً غالية الثمن، ولم يكن يشتريها سوى ميسوري الحال ككثيرٍ غيرها من المواد التي تسبّبتْ بارتفاع أسعارِها الحربُ العالميّةُ الأولى. أمّا المُعسَرون فكانوا يعمدون إلى دبس العنب أو الخروب لتحلية الطّعام والشّراب.

وكان الشَّيخ خليل الخازن، في تلك الأيّام، أحدَ كبار ضبّاط الدّرك اللبناني. وكان معروفًا بالظُرفِ والفُكاهة وسرعة البديهة. ويروى أن جاءه أحدهم يومًا زائرًا، في منزله في كسروان. ولمّا فتحت له الباب «لبيبة»، مدبّرة المنزل، رأتْ أمامها رجلًا وسيمًا أنيقًا يرتدي ثيابًا متناسقة الألوان، على الطراز الأوروبّي؛ بينما كان يومها كثيرون من العامّة ما زالت ثيابهم على الزيِّ اللبنانيّ التقليدي، «الشروال» و«الكبران»[2] وتعلو اللبّادةُ الرأسَ. فبادرها بالسّؤال عن الشّيخ. فقالت، في سرّها، لعلّه من ذوي الشّأن، ومن دون السُّؤال عن اسمه أو مُراده، دعته إلى الدخول إلى غرفة الضّيوف. ثمّ أسرعت لتُعلم ربَّ البيت بقدوم هذا الزّائر «المُهمّ».

وقبل أن يتوجّه للقاء الضّيف قال لها الشّيخ: اليوم هو من أيّام الصّيف الحارّة، فليكنْ شرابُ الضيافة، الليموناضةُ بالسّكر. إذ كانت التحلية بالسّكر من دواعي تكريم الضّيف «المُهمّ».

ولمّا دخل الشّيخ إلى الغرفة تحقَّق من أنّ هذا الضّيف يزوره للمرّة الأولى، بل هو أيضًا لم يرَه من قبل. ولكنّه، هو

---

[1] نشرت في عدد 2021/3/15 مجلة المستقبل الكندي – السنة الخامسة.

[2] الكُبران: ثوب إلى الوسط يلبس فوق الصدرية..

بدوره، أُعجبَ بحسن مظهره وأناقته. وبعد أداء التّحيّة وواجب الترحيب بالضّيف، على الطّريقة اللبنانية، سأله، قائلًا: من أين أنت آتٍ أيُّها السّيد؟

أجاب: من العاصمة بيروت.

فقال الشّيخ: لقد مضى عليّ عدّة أيّامٍ وأنا هنا أتمتّع بإجازةٍ صيفيّةٍ أبعدتني عن العاصمة. فهل من جديدٍ فيها؟

أجاب الضّيف: أجلْ، لقد وصلت بالأمس إلى الميناء، بارجةٌ حربيّة فرنسيّة. ويقال بأنّها ستكمل غدًا طريقها إلى زحلة.

وما أن سمع الشّيخ عبارته الأخيرة هذه، حتّى صاح مناديًا: «بدِبس يا لْبِيبةِ بدِبس». ثم سأل ضيفه مستفسرًا: هل قلت إنّها ستصعد إلى مدينة زحلة، عروس سهل البقاع؟

أجاب الضّيف: أجل هذا ما أخبرني به أحد العاملين في المرفأ.

فقال الشيخ في سرّه: رحم الله من قال «المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، لا بما يرتديه من جميل أو غالي الثياب».

السِّياسي والقاق[1]

يُروى أنَّ أحدَ رجالِ السّياسةِ اللبنانيّين، رأى يومًا أنَّ الوقتَ قد حانَ للبدءِ بتحضيرِ ابنهِ البِكرِ ليُصبحَ قادرًا على تولّي مهامِّ المركزِ والكرسيّ الذي يتربعُ عليه منذ سنينَ عديدة. فمن المتعارف عليه في لبنان أنَّ الزّعامةَ أو المنصبَ السياسيَّ، هما من الأملاكِ القابلةِ للتَّوريثِ، تمامًا كالأعمال التّجارية أو الصّناعية.

ولمّا كانت أعمالُهُ لا توفّرُ لهُ الوقتَ الكافيَ لذلكَ، فقد عهِدَ، السياسيُّ، بتلك المهمّةِ إلى صديقٍ لهُ، ممّن عركتْهمُ الأيّام، وكان قد رافقَهُ في مسيرتِه في العمل السّياسيّ منذ بِدايتِها، ولم يزلْ.

وبعد ما يزيدُ عن السَّنةِ، سألَ السّياسيُّ صديقَه عمّا وصلَ إليه في تدريبِ ابنِهِ، ذلكَ الوارثُ المُفترضُ، فأجابه قائلًا: «قاق ابن قاق».

فقال السياسيّ متعجبًا: وما شأنُ القاقِ في ذلك؟

فأجابه الصّديقُ: في الموروثِ الشّعبِيّ، يا صديقي، إنَّ القاقَ طائرٌ ذكيٌّ حذِرٌ جدًّا من بني البشر، كما أنَّه لا يتوانى عن السَّطْوِ على أيّ شيءٍ يُصادِفُهُ أمامَهُ. ومن الشواهدِ الشعبيَّةِ على هذا أنَّ أحدَهم سألَهُ مرَّةً قائلًا: يا قاقُ لماذا أكلتَ الصابونةَ؟ فأجابه القاقُ: «الرَّذالَةُ صنعةٌ». أمّا عن وصفِي ابنِكَ بأنه «قاقُ ابنُ قاقٍ»، ففي الرّواياتِ الشعبيّةِ أيضًا أن قاقًا قال لابنِه يومًا: يا بُنيَّ، لقَد بلغتَ السّنَّ الطبيعيَّة التي تفرضُ عليكَ أن تستقِلَّ بشؤونكَ بنفسِكَ، وكأبٍ عليَّ أن أنصحَ لك بالحذرِ الدّائمِ من بني الإنسانِ، فإذا رأيتَ أحدَهم يحرّكُ جسدَهُ نزولًا إلى ما يشبِهُ

[1] من روايات الآباء. والقاق، طائرٌ من فصيلة الغُرابيات رمادي اللون أسود الرأس والجناحين والذنب. وقد تسمّيه العامّة: «القعق» نسبة إلى صوته. ونشرت على موقع «المنبّه» الإخباري في 2020/10/26. (توقف بعد ذلك بشهرين).

القُرفُصاءِ فلا تتأخرْ ثانيةً واحدةً عن الطّيرانِ هُرُوبًا من مكيدتِه، لأنّه يكون في نِيّتِه من ذلك التحرُّكِ، أن يلتقطَ حصاةً ليرميَكَ بها ليقتُلَكَ. ولكنَّ القاقِ الصغيرِ بادرَ أباهُ قائلًا: ألا يُعقَلُ يا أبي أنْ يكونَ قد خبَّأَ تلكَ الحصاةَ في جَيبِهِ؟ عندئذٍ قال له أبوه: اذهبْ في سبيلك يا بني فلا خوفَ عليكَ، فأنت حقًّا قاقُ ابنُ قاق.

أمعاء مسعود[1]

في الرُّبع الأوّل من القرن الماضي لم تكن الخدمات الصّحية بعد متوفرةً في الكثير من قرى جبل لبنان، وبخاصّةٍ الصّغيرة والنّائية منها. وعلى الرُّغم من أن عددًا لا بأس به منها كانت تربطه بكبرى البلدات طرقاتٌ شُقّت لتسهيل سير عربات الخيل، إلا أنّها لم تكن معبّدة. كما أن السّيارات كانت لم تزلْ قليلة جدًّا إن لم نقل نادرة، ممّا كان يشكِّلُ صعوبة على شديدي المرضِ في الانتقال إلى عيادات الأطبّاء، سواء في المدن أم في البلدات الكبيرة. إلّا أنّ بعضَ الأطباء من أبناء تلك البلدات، كانوا يقومون بجولات، غالبًا ما تكون على ظهور الدواب، كلّ أسبوعٍ أو أسبوعين على القرى القريبة من بلداتهم، حيث يخصّص مختار القرية أو أحد وجهائها، غرفةً أو زاويةً من «مضافته»، يستقبل فيها الطّبيبُ المرضى ثم يصف لهم الأدوية المناسبة مما كان يحمله في جعبته، وغالبًا ما يكون ذلك الدواء مركبًا، من قبلِ صيدليٍّ، حسب وصفة ذلك الطبيب لعلاج الأمراضِ المُعديةِ التي تكثُر الإصابةُ حسب المواسم.

كذلك كان حال البيطريّين. وقد كانوا على نوعين: الأول، هم المتخصصون الذين درسوا المهنة في إحدى جامعتي بيروت، الجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف. والثاني، هم ممن اكتسب هذه الحرفة عن سابقيه وبالممارسة، إذ لم تكن الدّولة قد نَظّمت بعد هذه المهنة قانونيًّا، ولكنّ جولاتهم كانت متباعدة زمنيًّا أو أحيانًا موسميّة.

ويروى أن أحد أبناء قرية صغيرة نائية، وكان يُدعى مسعودًا، أصيب بعُسرٍ شديدٍ في إخراجِ الثِّفلِ من أمعائه، بدأ يشعر به في اليوم التّالي لزيارة الطبيب لقريته. وهذا الأخير لن يعود ثانيةً قبل أسبوعين كالمعتاد. اشتدَّ المرض على مسعودٍ فانشغل أبناءُ

[1] من روايات الآباء. نشرت في مجلة المستقبل الكندي – مونتريال، عدد 2021/5/15 السنة الخامسة.

القرية كلّهم بمرضه، الذي يبدو أنه كان نوعًا من القولنج[1]. وصار كثيرون منهم يصفون له وصفات توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، كما لم ينسوا التعويذات والرقى. ولكن كل ذلك لم يجدِ نفعًا.

ويصدف أن يأتي القرية «بيطريٌّ» كان في طريقه في جولةٍ على بعض القرى المجاورة. فيطير هذا الخبر بسرعة البرق في جميع أنحاء القرية، ويهبُّ ابن عمّ مسعود ليطلب العون من ذلك البيطريّ. ولكنّ هذا الأخيرَ رفضَ وصف أيَّ دواءٍ قائلًا بأنّ علاج البشر يختلف عن علاج الحيوان، وبخاصّةٍ أنه قد اكتسب خبرته عن والده وعزَّزها بالممارسة. ولكنّ ابن عمّ مسعودٍ ألحّ في طلب المساعدة قائلا: على الرّغم ممّا تقول فيبقى لديك علمٌ بمثل هذه الأمور أكثر من جميع أبناء القرية، وقد يموت مسعودٌ قبل عودة الطّبيب، التي لن تكون قبل أسبوعين.

وجد البيطريُّ نفسه أمام معضلة تحتّم عليه اتخاذَ موقفٍ في أمرٍ إنسانيٍّ، فإمّا أن يصف لمسعود دواءً قد يكون فيه شفاؤه، أو أن يتركه عُرضةً لخطر تسمُّمٍ قد يُودي بحياته. فأخرج من جعبته دواءً أعطى منه كميةً لابن عمّ المريض وشرح له طريقة استعمالها. وقد حدَّدَ حجم تلك الكميّة بمقارنة نسبيّة، فرأى أن نصف ما يعطيه عادة للثّورِ كافٍ لحالة مسعود. ثم غادر القرية على عجل لإكمال جولته.

وبعد ما يزيد عن الأسبوع، جاء القريةَ ذلك البيطريُّ في طريق عودته من جولته تلك. فسأل أوّل من التقاه من أبناء القرية، قائلًا: طمئنّي، هل أخرج مسعودٌ الثّفل من أمعائه؟ فجاءه الجواب: أجل لقد حصل ذلك مرتين، الأولى قبل موته والثانية بعده.

---

1 القُولَنْجُ، وقَدْ تُكْسَرُ لامُهُ، أو هو مكسورُ اللامِ، ويُفْتَحُ القافُ ويُضَمُّ: مَرَضٌ مِعَوِيٌّ مُؤْلِمٌ، يَعْسُرُ معه خُروجُ الثُّفْلِ والرِّيحِ .

«راحتين وكمشة»[1]

في أوائل ثلاثينيّات القرن الماضي عَهِد أحدُ الوجهاءِ إلى نسيبٍ له، يُدعى «فارس»، في الإشراف على أعمال بناء منزلٍ له قيد الإنشاء في بلدته، فعملُه في بيروتَ لم يكن يسمح له بالإشراف بنفسه على ذلك. وكان فارسٌ من كبار أصحاب الأملاك في قريته المجاورة لبلدة ذلك الوجيه، كما كان، عند فراغِهِ من الاعتناء بأملاكه، يعملُ في تكسير وتفجير الصّخور وقلعها، «مقلعجي»، (تسميةٌ يطلقُها اللبنانيون على هذه المهنة على الطريقة التركيّة). وقد أكسبَه عملُه هذا قوّةً جسديّة إضافيّة لما حباهُ الله من بُنْيةٍ خارقةِ القوّة. كما كان طيّب القلب متواضعًا حسنَ السّيرةِ حميدَ الأخلاق حافظًا للأمانة. ولم يُعرف عنه يومًا أنَّه اعتدى على أحدٍ أو اعتدَّ بنفسه أو تفاخر بقوتهِ الجسديّة.

ومما يروى عن قوّته تلك، أنّه كان في أحد الأيّام يعمل في إحدى حقلاته مستعينًا بأحد العمّال الزّراعيين الغرباء عن القرية وجوارها. وكانت تلك الحقلة عبارة عن بضعةِ «جلالٍ[2]» متدرجةٍ على منحدرٍ سريعٍ من الأرضِ ما جعل «الجِلال» قليلةَ العرضِ، كما هي الحال في كثيرٍ من منحدرات جبل لبنان. وتشاءُ الصُّدفُ أن يكون ذلك العامل من المُعتدّين بقوّتهم الجسديّة ومن هواة التفاخر «بصولاته وجولاته» التي لم يهدأ لسانُه عن التبجّح بها حتّى ضاق ذرعُ فارسٍ بثرثرة ذلك «البطل»، فدعاه للاقتراب منه بالحال. وما أن وقف أمامه حتّى

---

[1] حكاية حقيقية عرفت بطلها «فارسٌ» (اسمٌ مستعار) بنفسي وكنت لم أزل دون العاشرة. كتبتها في 2018/6/20. ونشرت في مجلة المستقبل الكندي – مونتريال – عدد 2021/1/1 السنة الخامسة.

[2] لقد فرضت طبيعة الأرض الجبلية الصعبة وانحداراتها على أبناء جبل لبنان أن يسوّوا الأرض لزراعتها على شكل الدرج وأطلقوا على كلّ درجةٍ اسم «جلّ» وجمعوها على «جلال أو جلالي». وقد يرتفع أحيانًا حائط الجلّ إلى مترين أو ثلاثة.

قال له فارسٌ: «فلقتني[1]»، ثم عاجله بلطمةٍ[2] شديدةٍ على خدّه جعلته ينقلب ثم ينطرح على أرض «الجلِّ» التّالي. بعد هذه المفاجأة وقف ذلك المغوار رافعًا يديه وهو يقول لفارسٍ: «بعرضك يا شيخ أنا مش من رجالك[3]».

ومن محبّته لنسيبه أخذ فارسٌ على عاتقه، أيضًا، تأمين كلّ ما يلزم لبناء المنزل من الحِجار الصخرية. فكان أن عرض على المهندس المشرف على البناء عيّنةً كان قطعها من إحدى الصخور الكبيرة وغير البعيدة عن موقع البناء. وبعدما تفحّصها المهندس وافق عليها. ولكن لمّا تعرف على موقعها، أشار على فارسٍ بأخذِ الحذرِ عند تفجير الصّخور وبالاعتدالِ في كميات البارود ونصح له ببعض النِّسبِ لتلك الكمّيّات حسبَ حجمِ الصّخرة، نظرًا لموقعها في أعلى منحدرٍ سريعٍ جدًّا وفي أسفله إحدى البلدات المجاورة.

بدأَ فارسٌ بتكسير الصّخورِ الصّغيرة نسبيًّا بما توفّرَ لهُ من معدّات. ولكنّها لم تكن كافية لحاجة البناء بالكامل. فتحوّل إلى الكبيرة التي كان عليه أن يُكسِّرها بالتفجير. وهذا يقتضي أن يخْرِقَ وسطها بالمِطرقة والإزميل بحفرة قد يبلغ عمقها نحو العشرين سنتيمترًا أو يزيد وقُطْرُها نحو الخمسة سنتيمترات يحشوها بالبارودِ المضغوط والمرصوص ثمَّ يوصلُها بشريطٍ من الفتيل بطولٍ يسمح له أن يُشعِلَه عن بعد كافٍ لينفجر البارودُ فتتكسَّرَ الصّخرة قِطعًا مختلفة الأحجام، ومن دون أن يتعرّضَ هو أو من معه لأيِّ أذًى، قد يسبِّبُه ما يتطاير من القطعِ الحجريّة تبعًا لقوة الانفجار.

---

[1] يقال فلق الشيء فانفلق بمعنى شقّه. ويقول ابن الجبل «فلقتني» لمن يزعجه بكثرة الكلام أو الثرثرة أو المفاخرة الفارغة أو غيرها.

2 اللَّطْمُ: ضَرْبُك الخدَّ وصَفْحةَ الجسد ببَسْط اليد، وفي المحكم: بالكفّ مفتوحة، لَطَمَه يَلْطِمُه لَطْمًا ولاطَمَه مُلاطَمةً ولِطامًا. أما الصفعُ فيكون في أَن يَبْسُطَ الرجل كفه فيضرب بها قفا الإنسان أَو بدنه.

[3] أي أنا لست من أندادك يا شيخ ولا ممن يبارونك.

ولكنْ ما أن فجّرَ فارسٌ أُولى تلك الصّخورِ حتّى طارتْ قطعةٌ منها، جاوز حجمها المترين المكعبين ممّا يعني أن وزنها يبلغ بضعة أطنانٍ، وراحت تتدحرجُ على ذلك المنحدر باتجاه البلدة في أسفله، مكسِّرةً ما تصطدمُ به من جذوع الأشجار الحرجيّة الكثيفة التي تغطّي ذلك المنحدر، إلى أن تدخلت العنايةُ الإلهيّة فأوقفها جذعُ شجرةِ زيتونٍ معمّرة على بُعد أمتارٍ معدوداتٍ من أحد منازل تلك البلدة التي نجت من كارثةٍ كانت محقّقة.

بلغ الخبرُ سمعَ المهندس فسارع في الحضور من بيروت لاستجلاء الأمر. وبعدما عاينَ تلك الصخرة المستندة على جذع الزيتونة المباركة، صعِدَ إلى مكان التّفجير فهاله منظرُ العديد من القطعِ الصّخرية المختلفة الأحجامِ والمتناثرة حول مكان الصخرة الأمّ وبأبعادٍ مختلفة، وقدّر بأنّها قد تكفي لنحتِ ما قد يفيضُ عمّا يلزم من الحجارة لإتمام ذلك البناء. ثم توجّهَ إلى فارسٍ مستفسرًا عن كمّيّة البارود التي استعملها في ذلك التّفجير.

فأجابه: لم أزدْ عن المقدار الذي أشرتَ به عليَّ.

فسأله: وكم كان ذلك؟

فقال: «راحتين وكمشة». أي ملء راحتين وحفنة من كفِّهِ.

فقال المهندس: أرني تلك الرّاحة.

فلمّا بسط فارسٌ كفّهُ أمام ناظري المهندس، قال له هذا الأخير: بالله عليك، أتُسمِّي هذهِ راحة؟ فما هي والله سوى «رفش».

«المُخَرْمِش»[1]

حتّى أواخر النّصفِ الأوّل من القرن العشرين، لم تكن الدَّولة قد تمكَّنت بعدُ من فتح المدارس الرَّسميّة في كثيرٍ من البلدات والقرى اللبنانيّة. ولذا كنتَ ترى، قبل ذلك، الأمّيّةَ غالبةً على مُعظم أبناءِ بعضِ القُرى النائيةِ، إلّا من عددٍ من المتعلّمين قد لا يزيدُ عن عددِ أصابعِ اليدِ الواحدةِ. وأحيانًا كان ينخفِضُ إلى واحدٍ فقط، وغالبًا ما يكون هذا خوري الرعيّة في القرى ذاتِ الأغلبيّةِ المسيحيّة، أو إمامَ الجامع في القرى ذاتِ الأغلبيّةِ المسلمة أو المختار. وكان هذا «المتعلِّم»، مهما كانت درجةُ علمِهِ، يتمتّعُ بدورٍ مُميّزٍ بين أبناء قريتِهِ، لا في قراءة وكتابة رسائلهم فحسب، بل قد يتعداهُ إلى البتِّ في كثيرٍ من أمور القريةِ وشؤون أبنائها العائليّة أو الشّخصيّة. ويُمكنُنا أن نصِفَه بالمستشارِ أو أحيانًا القاضي. وهذا ما كان يُشعِرُه بأنّه أرفعُ مستوًى منهم، ما يجعَلُهُ حريصًا، أحيانًا، على الاستئثارِ بهذا الامتيازِ وألّا يسمح لغيره أن يشارِكَه فيه قدرَ استِطاعتِه. أليس هذا شأن سياسيّي لبنان أيضًا؟

ويُروى عن إحدى تلكَ القُرى أنْ كان الخوري جريس المتعلّمَ الوحيدَ فيها، وهو لم يكن أحدَ أبنائها، وعلى الرُّغم من أنَّ بطرس أفندي كانَ أمّيًّا، فقد كان أكبر وُجهائها، لأنّه كان أكثَرَهم ثراءً إذ كان يملكُ، إلى جانبِ داره الفسيحةِ، أملاكًا شاسعة، وصلت إليه ورثًا، وكان إنتاجُها السّنويُّ يُوفِّرُ له أموالًا نقديةً لا بأسَ بها. وكانَ في عصرِ كلِّ يومٍ يجتمعُ في داره، سائرُ وُجَهاءِ القريةِ، وفي طليعتِهم الخوري جريس، للتّداول في شؤونها، أو لتبادلِ الأحاديثِ على فنجان قهوة.

---

[1] من حكايات الآباء، كتبتها في 2019/3/9.

وكان لبُطرس أفندي ابنٌ اسمُه يوسُفُ، ورغبةُ الأبِ في تأسيس مستقبل ابنه، وخلوُّ القرية من أيّ مدرسة، اضطرَّاه إلى إرساله، منذ سنِّ الحداثة، ليتعلّم في إحدى المدارسِ الداخلية التَّابعة لإحدى الرُّهبانيات. ولمَّا اجتازَ يوسُفُ بنجاحٍ الامتحانَ الرَّسميّ النهائيَّ للمرحلةِ التعليمية الوسطى، وأصبحَ بالتالي حائزًا على شهادةِ الـ(Brevet)، عادَ إلى كنفِ والدِهِ، الذي قرّر أنّ يوسفَ لم يعد بحاجة إلى متابعة التّعلُّم إذ قد حان الوقتُ ليتسلَّمَ إدارة أملاك العائلة. وقد كانَ مستوى التَّعليم في تلكِ الأيّام يسمحُ لأيٍّ من أمثالِ يوسف أن ينضمَّ إلى ملاكِ التَّعليمِ في المدارسِ الرسميّةِ، والكثيرِ من الوظائف الحكوميّة الأخرى.

وبعد انتهاءِ الاحتفالات بنجاحه وبعودته النهائية، قال له والِدُه بأنْ قد أصبحَ عليه أن يُشاركَه أيضًا في اجتماعاتِ الوُجهاء اليوميّةِ، رغبةً منه في تدريبِه كي يتسلَّمَ الوجاهةَ من بعدِه. وهذه عادةٌ متأصِّلةٌ، أيضًا، بين أصحابِ المقاماتِ في لبنان بجميعِ مستوياتها، وبخاصّةٍ بين السِّياسيّين. فإن تمكّن الوريثُ من الارتقاءِ إلى مقامٍ أرفع درجةً أو درجاتٍ من مقامِ أبيه فهذه غايةُ المُنى. ولكنْ يبقى ذلك ضِمن الحُدودِ التي يُجيزُها له نظامُ لبنانَ الطَّائفيُّ حسبَ مذهبِه الدّينيّ لا حسبَ مُؤهّلاتِهِ العلميّةِ أو الذِّهنيّة، ومهما بلغت درجةُ خبرتِه ومهارتِه في حقلِ تخصُّصه.

وفي اليوم التّالي، التأمَ شملُ الوُجهاءِ في دارِ بطرس أفندي كالعادة. وبعد الانتهاءِ من تكرار عباراتِ التَّرحيبِ والتَّهنئة بيوسُف وبنجاحِه وعودتِه، طلبَ بطرسُ من الخوري جريس أن يمتحنه. وهذا عائدٌ إلى رفعةِ مقامِ هذا الأخير بين أهلِ القريةِ وثِقَتِهم بعلومِه. فاعتدل الخوري جريسُ في مقعدِه وشمَخ برأسِه ورفعَ كتفيه ثم توجّه إلى يوسُفَ يسأله وهذا يُجيب:

س: ما اسمُ الهرّ بالفُصحى؟

ج: السِّنّور والقِطّ والبَسّ والهرّ.

الخوري: جواب خطأ، هو «المُخرمِش».

س: وما اسمُ النَّار؟
ج: النّار.
الخوري: خطأ، تُسمَّى «الحمراء».
س: والماء؟
ج: ماء وجمعها مياه وأمواه.

الخوري: وهذا أيضًا خطأ، بل تُسمَّى «الغَزِيرة».

فبدأ الغضبُ يظهرُ على وجهِ بطرس، والحاضرون يهمهمون ويتوشوشون. فقال أحدُهم: لعلَّه نسي، يا «أبونا» فرجاءً أعطهِ فُرصةً أخرى.

فقال الخوري: حسنًا. وما اسم البيت إذًا؟
ج: بيت ومنزل ودار.

الخوري: أخطأت أيضًا، بل يقالُ له، «الصَّرحُ الطَّويل». وسأختم بالسّؤال الأخير التَّالي: ماذا تُسمّى الكراسي والطاولاتُ وغيرُها مما يحتاج إليه الناس في منازلهم؟

ج: الأثاث والفرش.

الخوري: يبدو لي كأَنّك لم تذهبْ إلى المدرسة، بل تُسمَّى «الجواهر».

هنا ثارت ثائرةُ الأبِ وطردَ ابنَه من القاعةِ قائلًا: اعتبارًا من الغدِ ستذهبُ للاهتمام بشؤونِ الأشجارِ والمزروعات والحيوانات، عاملًا زراعيًّا كسائر العمَّال، فقد ذهبَ سُدًى كلُّ ما تكلّفْتُه من المالِ لتعليمك، فاغرُب الآن عن وجهي.

خرج يوسُفُ حزينًا حائرًا في السّبب الذي جعلَ الخوري يفعلُ ذلك. ولكنْ ماذا يُمكنه أن يفعلَ غيرَ الإذعان لأمرِ والده؟ فبدأ مع صباح اليوم التَّالي بتنفيذ حُكْمِ أبيه.

وبعد مُدَّةٍ من الزَّمن، بعثَهُ والدُه برفقةِ أحدِ العمَّالِ لشراءِ بعض ما يحتاجون إليه في الأعمال الزِّراعيّة. وكانت المتاجرُ

المقصودةُ في البلدة التي تقع فيها مدرستُه. فقال لرفيقه: سأذهبُ لزيارةِ مدرستي لعلَّني أرى أحدًا من رِفاقي، ولكنْ لن يطولَ غيابي لأكثرِ ممّا تحتاجُ إليه من الوقت لتَنجِزَ أنتَ بمفردِكَ ما كُلِّفنا به سويّةً، وأرجوك ألّا تُخبر أحدًا بذلك.

ولدى بلوغِه بابَ المدرسةِ رآه النَّاظر فرحّبَ به مستفسرًا عن أحواله. فشكرَه يوسُفُ وأخبرَه بما جرى له مع الخوري جريس، وكيف كانتْ ردّةُ فعلِ أبيه وأبناءِ القرية وما آلَ إليهِ حالُه كعاملٍ زراعيٍّ ثانويٍّ في أملاكِ والدِه. فهوّنَ عليه النَّاظرُ قائلًا: لا عليكَ يا بنيّ، فأنتَ لم تزلْ على براءتِك، ويبدو أنَّنا قد اخطأنا بأن علّمْناكَ ما في الكُتبِ فقط ولم نعلّمْكَ كيفَ تتعاملُ مع أولئك النّاسِ وأمثالِهم. وبعدما قدَّمَ له النّاظرُ بعضَ الإرشاداتِ والنَّصائحِ، غادرَه يوسُفُ شاكرًا.

وصدفَ أن ذهبَ الخوري جريسُ، بعدَ بضعةِ أيّام، في زيارةٍ لذويه، قالَ بأنّها قد تمتدُّ إلى ما قبل قُدَّاس الأحد القادم. وفي اليومِ التَّالي اشتعلت النَّارُ في منزلِه. ولكنَّ أهلَ القرية تمكّنوا من إهمادِها قبلَ أن تتسبّبَ بأضرارٍ جسيمة. وكان عليهم، بالتَّالي، أن يُعْلِمُوه بما حصلَ. فطلب بطرسُ أفندي من يوسُفَ، باعتبارِه الوحيد من أبناء القرية الذي يعرفُ الكتابة، أن يسطِّرَ للخوري جريس كتابًا يُعْلِمه فيه بما حصل. فنفّذَ يوسُفُ طلبَ والدِه وسلّمَه الرّسالة، فتولَّى الأبُ إرسالَها في اليوم التَّالي مع سائقِ البوسطةِ التي تصلُ القريةَ وما حولَها ببيروتَ وبما على طريقها من البلداتِ والمُدنِ، ومنها بلدة الخوري جريس. وكان ذلك السَّائق يعرفُ معظمَ الرُّكّابِ الذين ينقلُهم ويعرفُ مساكِنَهم ومقاصدَهم، فوعدَ بطرسَ أفندي بتسليمِ الرّسالةِ إلى الخوري جريس يدًا بيدٍ.

انتظر أهلُ القرية عودةَ الخوري جريس في اليومِ التَّالي، ولكنّه لم يعدْ إلّا بعدما أمضى المدَّةَ التي كان قد حدَّدها لغيابِه. فأسرعَ أهلُ القريةِ للترحيب به والسلام عليه، وسأله بطرسُ أفندي عن سببِ تأخُّره بالعودةِ على الرُّغمِ من الحريق الذي

أخبروه به في رسالتِهم. فأجابه الخوري بأنَّه تسلَّمَ الرّسالة وأنَّ محتواها كلامٌ غيرُ ذي معنًى. وسحب ورقتها من جيبه وراحَ يقرأ على مسامعِ الجميع:

«بعد التحية، نعلمكم بأنّ المُخرمِشَ قد دخلَ إلى الصّرحِ الطَّويلِ حاملًا بذنبِه الحمراءَ ولو لم ندركْها بالغزيرة لأتلفتَ الجواهر.»

وتابع: فبالله عليكم ما هذا الهراء وأين الخبرُ الذي تتكلمون عنه؟

عند ذلك نهرهُ بطرس أفندي، قائلًا: «ولوْ يا أبونا» إذا كُنتَ أنتَ قد نسيتَ فأنا لم أنسَ بعدُ، أليست هذه هي الأسماءُ التي صحّحتَ بها أجوبةَ ابني يوسُفَ إثرَ عودتِه من المدرسة؟ وثنَّى على كلامهِ هذا، أيضًا، سائر الحاضرين من وجهاء القرية.

فصَمَتَ الخوري جريس وطأطأ رأسَه خجلًا. وفهمَ بطرسُ أفندي، بما علَّمتْه الأيّام، أنَّ ما فعلهُ الخوري كان من غيرتِه على موقِعِهِ بين أبناءِ القريَةِ، الذي لا يريدُ أنْ يشاركَه فيه أحدٌ، ولِذا، واحترامًا لثوبِ الكهَنوتِ الذي يرتديهِ، لم يُوجِّه له أيّ لومٍ أو عتابٍ. بل اكتفى بأن نادى على يوسُفَ وقال له بصوتٍ عالٍ: «اعذرني يا بنيَّ فقد ظلمتُك». وضمّهُ إلى صدرهِ وطبعَ على جبينِه قُبلةً أبويةً أنستْه كلَّ ما عاناه، جرَّاء فعلةِ الخوري، من تعبٍ جسدِيٍّ ونَفْسِيٍّ، وعلَتْ محيَّاهُ ابتسامةُ الرّضى والانتصارِ، شاكرًا في سرِّهِ لنَاظِرِ المدرسةِ نصائحَه وإرشاداتِه التي مكَّنتْهُ من استعادةِ وتعزيز المركز الذي يستحقّه لدى والدِه وبين أهلِ القرية.

قِطّةُ عادل[1]

في عشرينيّات القرن الماضي كان أبناء غالبيّة قرى جبل لبنان يتنقّلون بين قراهم إمَّا سيرًا على الأقدام أو على ظهور الدّواب، حسب بعد المسافة أو غايةِ التّنقل. وكانت المدَّةُ الزَّمنيّة، التي يفرضها بُعدُ المسافة للوصول إلى حيث يقصد، تُحتِّم على «المسافر» أن يرسم خطَّ سيره بحيثُ يحدِّد مسبقًا القرية أو القرى التي يتوجّبُ عليه أن يبيتَ فيها ليتابع مسيرته في صباح اليوم التّالي، ما يتيح له أخذَ قِسطٍ من الرّاحة وتجنّبَ السّفر ليلًا. وكان يعمل على أن تكون محطّاتُه في قُرًى له في كلٍّ منها صديقٌ أو نسيبٌ يستضيفه.

وفي أحدِ الأيّام، من أواخر فصل الخريف، وقبل غروب الشمسِ بما يزيد عن الساعةِ، دقَّ أسعد باب صديقه عادل في إحدى قرى قضاء جزين. وكان أبناءُ هذا القضاء ينعتون أبناءَ تلك القرية ببساطة العقل والتّفكير. وكان أسعد في طريقه إلى إحدى بلدات السّاحل الصّيداوي. استقبله عادل بالتّرحاب وبوجهٍ بشوش ينمّ عن سروره بقدوم صديقه، كعادة أبناء الجبل الذين عُرفوا بمحبّة الضّيفِ وإكرامه.

وعندما يكون وصولُ الضّيف في ساعةٍ متأخرةٍ من النّهار، يتعذّرُ على المضيف تحضيرُ وجبةَ عشاءٍ تليق به وبضيفه، فلذا قالوا: «ضيف المسا ما له عشا»، ويعنون بهذا أنْ يكونَ عشاؤه من «حواضر البيت»، أي من المؤونة التي كانت ظروفُ معيشتهم تفرضُ عليهم تحضيرها صيفًا لسائر الفصول.

لم تتأخّر زوجة عادل في تحضير وجبةٍ مما قُسم من تلك المؤونة. وضعتها على «صينية» من القشّ المجدولِ فوق كرسيٍّ صغيرٍ أمام باب الدّار، فجلس حولها الضّيفُ وأصحاب البيت. إذ على الرّغم من حلول فصل الخريف، فلم تكن حال

[1] من حكايات الأصدقاء، قد تكون مختلقة من قبل أبناء القرى المجاورة، ولكنّها طريفة. نشرت في مجلة المستقبل الكندي عدد 2021/3/29.

الجوّ في ذلك اليوم تفرض عليهم الهروبَ إلى الدّاخل، كما أنَّ عتمةَ الليل تحتاج إلى بعضِ الوقت لترخي سُدُولها.

لفت نظرَ أسعد قطّةٌ تدور حول المائدة وبين الأرجل بموائها المتكرّر طلبًا للأكل، ولشدةِ اتّساخها تبدَّلَ لونُها من الأبيض إلى ما يقربُ من الاسوداد. وبعد الانتهاء من العشاء وشُكرِ الضّيفِ لمضيفه بدأت ساعة السّمر. وكان أوّلها أن سأل أسعد عادلا قائلًا: هل هذه القطّة لك؟

أجاب عادل: أجل. ولقد كان لدينا قبلًا واحدة سوداء وقد نفقت منذ نحو عامٍ بعدما أنهكت السنوات قُواها. ولمّا ولدت قطّةُ جيراننا وهبونا هذه.

قال أسعد: هي بيضاء اللون كما أعتقد، أليس كذلك؟

قال عادل: أجل، ولكن بينما كنَّا بالأمس نُعيد تثبيت «الوجاق»[1] تحضيرًا لبرد الشّتاء، دخلت في أحد «القساطل» فاتّسخَ جسدها كما ترى بسبب فضلات الدّخان التي تتراكم عادة على جدران تلك «القساطل» الدّاخليّة، كما تعلم.

فقال أسعد: ولكن لما لا تغسلها فتنظفَ ويعودَ لونُها كما كان؟

فأجاب عادل: أخاف إن فعلتُ ذلك من أن تنفق.

فقال أسعد: لا تخفْ فأنا كفيلٌ بأنّها ستبقى حيَّةً فالقطّة بسبعة أرواحٍ، كما يقولون.

فقالَ عادل: سأفعل ذلك غدًا إن شاء الله.

وفي الصّباح الباكر رحل أسعد شاكرًا لصديقه حُسنَ الضّيافة واعدًا بزيارته في طريق العودة. فشيَّعه عادلٌ حتّى خرج من ساحة الدّار، متمنيًا له التّوفيق والعودة سالمًا، مكرّرًا التّرحيبَ به في أيّ يومٍ أو ساعةٍ.

بعد مرور ما يقرب من الأسبوع مرَّ أسعد، في طريق عودته، بمنزل صديقه عادل كما وعده. وتكرّر أسلوب الضّيافة كما في السّابق، ولكنَّ بدءَ برودة الجوّ غيّرَ المكان من أمامِ الدّار إلى

---

[1] الوجاق، مدفأة يُشعلُ في داخلها الحطب ويخرج دخانها بقساطل من التّنك عبر سطح الغرفة أو أحد جدرانها الخارجية. وقد كانت أهمّ وسائل التدفئة في الجبل.

داخلها. وبعد العشاء لاحظ عادلٌ أن صديقه يُكثر التلفّت في أنحاء الغرفة. فسأله عمّا يبحث. فقال أسعد: إنّي لا أرى القطّة تتجول في الغرفة كما كانت تفعل سابقًا.

فقال عادل: لقد نفقت.

فقال أسعد: وكيف نفقت؟

فأجابه عادل قائلا: «مثل ما قلتلِّي غسلْتَا غسلتا وبسّ عصرتَا ماتت»[1].

[1] أي: (لقد عملت بنصيحتك وغسلتها، ولكن عندما عصرتها، قصد التنشيف، نفقت.)

تنصيب أول بطريرك للرّوم الملكيّين الكاثوليك[1]

المعروف أن كنيسة الرّوم الملكيّين الكاثوليك، قد انفصلت عن الكنيسة الشرقيّة في أوائل عشرينيّات القرن الثامن عشر، واعترفت بالسلطة الباباويّة. وفي العام 1724، رحّب بها، البابا بنيدكتس الثالث عشر.

ويقول حسين غضبان أبو شقرا[2] – راوي أحداث كتاب الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية -: روى لي المرحوم الطيب الذكر المطران ثاوادسيوس، مطران صيدا ودير القمر للرّوم الكاثوليك، قال: في عهد الأمير ملحم شهاب، وكان الرّوم الكاثوليك قد انفصلوا عن الكنيسة الشرقيّة، لينضمّوا إلى الكنيسة الغربيّة، معترفين بالسلطة الباباويّة، ولم يكن قد سُقِّف لهم بطريرك بعد، قدِم القاصد الرسوليّ إلى صيدا. وقد كان يومئذٍ، أبو شاهين معضاد أبو شقرا موجودًا أيضًا في. – ويبدو أن القاصد الرسوليّ هذا، كان على علمٍ بامتياز خاصٍ بعمّاطور في حماية من يلجأ إليها لمدّة سنة كاملة[3]، وبمقام أبي شاهين المذكور، لا بين أبناء عائلته، أبو شقرا، فقط، بل أيضًا في

---

[1] كتبتها في 2020/5/29، بتصرف عن كتاب الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية – الراوي: حسين غضبان أبو شقرا – تأليف: يوسف خطّار أبو شقرا – تحقيق: عارف يوسف أبو شقرا – بيروت – آذار 1952.

[2] المقدر تاريخ مولده فيما بين 1830 – 1835.

[3] امتيازات بلدة عماطور: كان لها الحقّ بأن تحمي من يلجأ إليها مدة سنة. وكان المارة يمتنعون عن رفع أصواتهم بغناء أو إنشاد، وكان يفكُّ وثاق المقيّد والمكتوف لدى مروره فيها، وكان الفرسان يترجلون ويقودون أفراسهم حتى يجاوزوا البلدة. وكانت منذ أيام الأمير حيدر شهاب (دام حكمه من 1707 إلى أن تنحى طوعًا لابنه ملحم في العام 1729) من الضياع الخاصة، تُجبى أموالها إلى الحاكم رأسًا، لا على يد صاحب الإقطاع. (ص -و-) من كتاب الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية. والضياع الخاصة هي: نيحا وعماطور وبعقلين وبتلون وعيندارة. (الشيخ ناصيف اليازجي يجعل دير القمر بدل بعقلين في الضياع الخاصة).

عمّاطور والشوف عامّة، كما بوجوده في حينه، في صيدا. ولذا جاء للقائه فيها.

ولما التقيا طلب القاصد الرسوليّ من أبي شاهين، العون في أمر تنصيب بطريرك لطائفة الروم الملكيّين الكاثوليك، لأن حكّام ذلك الزمان كانوا يكرهون الإكليروس ولا يقبلون بمسح رؤساء لهم. فاستجاب أبو شاهين لطلب القاصد الرسوليّ وطيّب خاطره وأخذ الأمر على عاتقه، قائلا: «في بيتي يسقّف البطريرك».

فامتطى كلٌّ منهما فرسه، وبرفقتهما المطران المنوي تنصيبه، قاصدِين عمّاطور، حيث تمَّ التنصيب في «علّيّة» أبي شاهين.

ويوضح محقق كتاب الحركات المذكور، أنّه بحسب مقالٍ للخوري قسطنطين الباشا، - منشورٍ في مجلة الرسالة المخلّصيّة، السنة السادسة 1939 - فإنّ ذلك البطريرك، هو كيرلس طاناس الدمشقي (ومنهم من يقول الإنطاكي)، وكان يُعرف باسم ساروفيم طاناس يوم كان بعد كاهنًا.

ويُكمل المطران ثاوادسيوس، صاحب رواية التنصيب، بأنّه لما بلغ الحاكمَ أمرُ التنصيب هذا، غضب غضبًا شديدًا، وبثَّ العيون والأرصاد وراء البطريرك الجديد. ولكنّه لم يستطع إلقاء القبض عليه جرَّاء مساعدة أبي شاهين المذكور، له وإخفائه عن الأبصار ريثما سافر القاصدُ الرسوليّ إلى روما واستحصل على كتابٍ من البابا، إلى الباب العالي، في الآستانة يلتمس فيه التصديق على تنصيب البطريرك المذكور، وإعلام حاكم لبنان بذلك.

صابر والملفوف[1]

صابرٌ خيّاطٌ للرّجال عُرفَ بمهارتهِ وظُرفه وحبِّه للمرح والمُزاح والدَّعابة، حتّى لو طالته شخصيًّا. وُلد وعاش في إحدى قصبات[2] لبنان في أواسطِ القرن الماضي. ولكنّه كان قصيرَ القامةِ، إذْ يُقدِّر الرَّاوي بأنّ طولُهُ لم يكنْ يبلغُ المترَ الواحد.

ومن المفارقة أن يكونَ معظمُ زبائن صابرٍ من طويلي القامة. وإذا ما جاءه أحدُهم، لأوّل مرّة، يطلب خياطة بِزَّةٍ، فكان صابرٌ، بعد الاتّفاق على الأجر وسائر التفاصيل، يقول له: الآن عليَّ تحديدُ المقاييس، وكي أتمكّن من ذلك عليك أن تختارَ، فإمّا أنْ تنامَ على الطّاولة أو أنْ أّضعَ السُّلَّم.

بالتّأكيد كان ارتفاعُ الطَّاولة يناسبُ طول قامة صابر. أما السُّلّم فكان عبارة عن ظهر كرسيٍّ من كراسي تلك الأيّام ذوات الأرجل الخشبية المتينة المربَّعة، والمقاعدِ من قشِّ «البيبر» الذي كانوا يصنعون منه الحُصُر، وهذا الظّهر يشكِّلُ امتدادًا لخشباتِ الأرجل الخلفيّة، وإذا ما فُكَّ عن المقعدِ والرجلين الأماميّتين يُصبِحُ شبيهًا بالسلّم. وكان صابرٌ يسند أعلى سُلّمِه على ظهرِ الزَّبون ثم يصعد درجتين أو ثلاث ويثبّت رأس ماسورة القياس بأعلى الكتف مستعينًا بدبّوس يجمع هذا الرَّأس بثياب الزّبون ثم ينزل أرضًا لقراءة رقم المقياس ويسجّله على دفتر المقاييس. أمّا إذا اختار الزبون النوم على الطاولة فتسهل المهمة كثيرا على صابر.

ويروى من دعابات أبناء بلدته معه، أنَّه كان يومًا في بيروت لشراء بعض حاجيَّات عمله. ولمَّا انتهى من مهمَّته تلك عادَ إلى حيثُ تقفُ «بوسطةُ» بلدته فتبيّن له أنّه تأخَّرَ عن موعد انطلاقِ

---

[1] من رواياتِ الأصدقاء.

[2] القصبة: القرية، ولكن اصطلح بعضهم أنها أكبر منها وأصغر من المدينة.

عودتها إلى البلدة. وكانت وسائلُ النَّقل في تلك الأيّام بين بلدته وبيروت تقتصر على ثلاث أو أربع سياراتٍ و«بوسطة» واحدة تنطلق من البلدة في الصّباح الباكرِ وتعودُ بُعيدَ الظُّهر لتبلغَ البلدة نحو الغروب. كما أنّ السَّيارات كلَّها كانت قد تركت بيروت أيضًا. فاضطرّ أن يستعينِ ببوسطة البلدة الأقرب إلى بلدته ممنِّيًا النّفس بأن يجد فيها وسيلةً تنقله إلى بلدته.

وصل إلى تلك البلدة بعد عصرِ ذلك اليومِ الصَّيفيّ بقليل. وترجَّل من «البوسطة» ووقف في السَّاحة ينتظرُ. ووقتُ الانتظار يمرُّ ببطءٍ مملٍّ. ولكنْ بعد مضي ما يزيد عن الساعة رأى من بعيدٍ سيَّارة أحد أبناءِ بلدته، فأخذّ يلوّح له بيديه الاثنتين إلى أن أوقفها السائق أمامه فسأله: ماذا بك يا صابر؟ ولماذا أنت هنا؟

أجابه صابرٌ: كنت في بيروت ولم ألحق ب«البوسطة» ولا بأيٍّ من السَّاقة الذين يعودون إلى البلدة، فاضطررْت أن استقلَّ «بوسطة» هذه البلدة، فأرجوك يا أسعد، أغثني.

قال أسعد: ولكنَّ السَّيارة، كما ترى، ملأى بالملفوف، إنْ في الدَّاخل أم على «الدَّعسات».

قال صابر: أرجوك لا تتركني هنا أريد أن أعود إلى البلدة ولا أعرف أحدًا هنا يستضيفني وليس في هذه البلدة فنادق، وستقلق عائلتي أشدّ القلق.

قال أسعد، وفي نفسه أمرٌ ما: ليسَ لديّ والحالةُ هذه، سوى أن أضعَك في كيسٍ واقفًا على «دعسة» السَّيَّارة بجانبِي، وأربطَه بالباب حفاظًا على سلامتك.

وقد كانت تلك السَّيَّارة من طراز فورد، كانت العامّة تسميها «أبو دعسة»، سقفها من القماش السميك المقوى، و«الدعسة» – وهما اثنتان - عبارة عن لوحٍ معدنيّ متين مثبتٍ تحت بابي السيارة من كلّ جانب، عرضه بنحو الثلاثين سنتمترًا وطوله

مساوٍ لفتحتي البابين، ليشكّل درجة يطؤها الشَّخص ليصعد إلى داخل السَّيَّارة.

فقال صابر: يبدو أنّك، يا أسعد، تروم إذلالي، ولكنَّ لهفتي على بلوغ منزلي وعائلتي تفرضُ عليّ القبول.

وهكذا كان، فاختفى صابرٌ في داخل الكيس الذي كان أطول منه، أما الطربوش فوجد له أسعد مكانًا في الداخل.

ويشاء القدر أن يوقفهما في الطريق رهطٌ من قوّات الجمارك يرأسهم ضابطٌ. سأل الضَّابطُ السَّائقَ عما في الأكياس وعلى «دعستي» السَّيَّارة. فأجابه، والابتسامة ظاهرة على شفتيه: كلُّها ملأى بالملفوف أنقله إلى أحد تجَّار بلدتنا.

فقال الضابط: كي نتأكد من صدق كلامك «بدنا نشيّش». وهذا معناه، في لغة العاملين في الجمارك، أن يغرز شيشًا معدنيّا في الكيس عدة مرّاتٍ ليتحقّق ممّا فيه.

كلُّ هذا وصابرٌ معتصمٌ بالصَّمت. فأومأ الضابط إلى أحد مرؤوسيه لينفِّذ الأمر. فكانَ أوّلُ كيسٍ تقدّم منه هذا الأخير ذاك الذي يختفي فيه صابرٌ. وما أن وضع يده عليه في المكان الذي سيغرزّ فيه الشَّيش، حتّى تحرَّك صابرٌ تحتها وهو يصرخ: أنا هنا أرجوك لا «تشيّش». ففزع رجلُ الجمارك، مرعُوبًا، إلى الخلف وصوّب سلاحه استعدادًا لأيّ طارئ. أما أسعد فاختلط صياحُه بالضَّحك راجيًا الجندي عدم استعمال السّلاح.

عندئذٍ أمرَه الضابطُ بفتح الكيس، وإذا بصابر يظهر منه وهو يشتم أسعد قائلًا: لولا لطفُ الله لكنتُ الآن في عداد الأموات، لعنك الله يا أسعد. ثمَّ روى للضَّابط شاكيًا ظُلم ابن بلدته ورذالتَه. وقد كان معظمُ أبناء المنطقة إمَّا يعرفون صابرًا أو سمعوا عنه ومن ضمنهم ذلك الضَّابط، الذي لم يتمكن، هو وأفراد الرَّهط، من كتم الضَّحك حتّى القهقهة.

ولما خمدت موجة الضَّحك، أمر الضَّابط السَّائق بأن يملأ الكيس بالملفوف ويضعَه على «الدَّعسة» ليُؤمن لصابرٍ مقعدًا في الدَّاخل، معفيًا إياه من تحويله إلى الشُّرطة.

من يُحبُّ الشيخ فليتبعه

أخبرني أخي زيدٌ، أنّه سأل يومًا المرحومَ والدنا قائلًا: كلَّما صادفني أحدُ أبناء بلدتنا، عمّاطور، خارجًا من المنزل، أو التقاني في الطريق، أراه يسألني دومًا عن وجهة سيري، فهل لكَ يا أبتِ أن توضحَ لي سبب هذه العادة؟

فأجابه والدي، بهدوئه المعهود، قائلًا: كان أحدُ أجدادنا، الشيخُ ناصيف، شيخًا للعقلِ[1] في زمانه[2]، وكان ذا شخصية فذّة، جمع إلى جانب الورع والوقار، دماثة الخُلق ومحبةَ الناس وعمل الخير ومساعدةَ الضعيف، وغيرَها من الصّفات الحميدة ما فرض على الناس محبَّته واحترامه. وكان في قرية بعذران المجاورة، عائلة من إخواننا المسيحيّين[3]، كان أفرادُها يعيشون من نتاج معصرة يمتلكونها، وكانت مصدر رزقهم الوحيد. وفي أحد الأيّام جاء بعضُ أفرادها الشيخَ ناصيفَ يشكون من أنّ أحد أبناء قريتهم المتنفّذين[4] يمنعهم من تشغيل المعصرة، وأنَّ ما من أحدٍ، من أبناء القرية، يتجرّأ على الوقوف إلى جانبهم ومساعدتهم خوفًا من ذلك المتنفّذ. وقد كان أبناءُ الشوف قاطبةً يومها، بمن فيهم جدّنا هذا، يعرفون مدى تسلّطه وسطوته.

ومن دون أن ينبس ببنت شفة، قام الشيخ ناصيف على الفور وامتطى دابَّته وأشار إلى أصحاب الشكوى بأن يسيروا معه. وما أن خرج من داره حتّى انبرى كلٌّ من رآه، من أبناء عمّاطور، يسأله: إلى أين العزم يا شيخنا؟

فيجيب: من كان يحبُّ الشيخ فليتبعه.

---

[1] أعلى رُتبة دينية في مذهب الموحدين الدروز.

[2] هو الشيخ ناصيف علي أبو شقرا، تُوفي في العام 1164 للهجرة الموافق 1750-1751م.

[3] وجاء في الصفحة 171 من «كتاب الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية»، أنّ صاحب المعصرة المذكورة، هو لبّس الحداد وهو من عين قني – الشوف.

[4] وفي الصفحة عينها من المرجع السابق، أنه الشيخ علي جنبلاط.

فلم يتوانَ أيٌّ ممن سمع جوابه هذا، عن الالتحاق بموكبه من دون أن يسأل عن وجهة السّير أو عن المكان المقصود. وما أن وصلوا إلى آخر عمّاطور حتّى كان عدد من رافقوه قد بلغ العشرات، شيبًا وشبابًا.

وعندما وصل الموكب إلى المعصرة قعد الشّيخ ناصيف على حجرٍ مقابلٍ لها وأمر أصحابها بتشغيلِها. ولمّا علا صوت آلاتها ووصل إلى مسامع ذلك المتنفّذ، أمر أحد أتباعه بأن يذهب ويتحقَّق الأمر. ولمَّا عاد هذا الأخير من مهمّته وأعلم سيِّده بوجود الشيخ ناصيف قرب باب المعصرة، أمر ذلك المتنفذ أتباعَه بأن يخلدوا إلى السكينة ولا يأتوا بأيّ حركة، قائلًا: نحن ليس بمقدورنا أن نواجه الشيخ ناصيف أبو شقرا، وهذه البلاد له وليست لنا.

وأردف والدي قائلًا: لقد رويتُ لك يا بنيّ هذه الواقعة كي تدرك مغزى سؤال أبناء عمّاطور عن الوجهة التي تقصدها، فهو ليس من قبيل التدخُّلِ في شؤون الآخرين، وإن رأيتَها أنت كذلك، بل هي عادةٌ متوارثة منذ القِدم فرضتها طريقةُ عيشِ القبائل وتعاضدُ أبنائها ونصرةُ بعضهم بعضًا في السَّراء والضَّراء، متبعين أهمَّ مبادئ عيشهم القائل: «انصر أخاك ظالمًا كان أو مظلومًا».

وختم أخي قائلًا: رحمةُ الله عليك يا والدي، لقد حولني توضيحك هذا عن التأفُّف إلى الشّكر لكلِّ من سألني بعد ذلك من أبناء عائلتنا عن وجهتي. كما جعلني أتروَّى في إصدار الأحكام الفوريّة على تصرّفات وأقوال الآخرين قبل أن أتبيَّنَ أسبابَها وغاياتها.

فكم يحتاج لبنان اليوم إلى رجالٍ من أمثال الشيخ ناصيف، رحمة الله عليه، ليقفوا في وجوه سياسيّيه، الذين تسبَّبوا بتسلطهم وفسادهم وجشعهم وسرقاتهم، بانهيار اقتصاده ونظامَيه المالي والاجتماعي، وبما تعرّض ويتعرّض له، منذ ما يزيد عن العقود

الأربعة من الزمن، من الأحداث الأمنيّة والكوارث المفتعلة، وبخاصّةٍ دمار ما يقارب نصف عاصمته، بيروت الحبيبة[1].

[1] بسبب الانفجار الهائل في مرفئها في الرابع من آب 2020.

«صيبة العين»[1]

في الموروث الشعبي، ويوم لم يكن التعليم قد عمَّ معظم قرى وبلدات لبنان، كان ينتشر عند العامّة اعتقادٌ بأنّ هناك أشخاصًا إذا ما نظروا إلى خيرٍ لدى الآخرين تسبّبوا لهم بالأذى، بما يسمُّونه «صيبة العين». وهذا ما قد يكون ناتجًا عن حسدٍ عظيمٍ يكنُّونَه في أنفسهم تُجاه من لا يحبّونه، أو من يملك شيئًا لا يملكون هم مثله، أو هو أفضل مما يملكون. والحسد مذكورٌ في القرآن الكريم، في قوله تعالى: {وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} (الفلق 5). ولذا كنتَ ترى الناس يتجنّبون أولئك «الحُسَّاد»، ويطلقون عليهم الأوصاف كقولهم: «هذا يصيبُ بالعين» أو «عينه صيَّابة»، أو يَسِمُونَهم بعلامات فارقة، مثل: «عيونُه زُرق وأسنانه فُرق- بِصِيب بِالعَين». وكانوا يتعوذون منهم بعباراتٍ مثل: «اسم الله، ويخزي العين»، وبأشياء يعلّقونها على أبواب المنازل، مثل «حِذوة» حصان أو كفٍّ مبسوط مصنوعٍ من النحاس وفي وسطه عينٌ زرقاء، أو خرزةٍ زرقاء... كما كانوا يعلّقون في أمكنة ملفتة من ثياب الأطفال الحديثي الولادة، مثل ذلك الكفِّ أو تلك الخرزة، وغالبًا ما يكونان مُصاغَين من الذهب أو الفضة.

كذلك كانوا يروُون عنهم الرِّوايات المختلفة، أذكر بعضًا مما لم يزل عالقًا في ذاكرتي ممّا سمعته من كبار السنّ، أو عنهم، يوم كنت في ريعان الشباب؛ قال أحدهم: في أحد أيّام الصيف ذهبنا أنا ورهط من أترابي، لزيارة أحد وجهاء منطقتنا. فاستقبلنا أحد العاملين في المنزل ودعانا للانتظار ريثما يعود صاحب الدار من أداء زيارة واجبة في القرية. فجلسنا في باحة الدار التي كانت تظلِّلُها أوراق «عريشة» عظيمة متمددة على «سقالة» حديدية تغطي تلك الباحة بالكامل. وكانت تتدلّى منها عناقيد عنب لم يسبق لي أن رأيت بحجمها أو نوعها. فرحنا جميعا

[1] نشرت في مجلة المستقبل الكندي عدد 2021/6/4.

نتأملها إلّا أحدنا، لاحظنا أنّه لم يرفع نظره لرؤية ذلك المنظر الرائع. فقال له آخر: ما بالك يا فلان؟ ولِمَ لا تشاركنا الرؤية؟

فأجابه قائلا: أخاف أن أتسبّب بأذية «العريشة» لأنّي «أُصيب بالعين».

فقلنا: أمعقولٌ ما تقوله؟

قال: اختاروا أيّ عنقودٍ ثم أرشدوني إليه لترَوا ماذا سيحصل.

وبالفعل، فما أن نظر لبضع ثوانٍ إلى العنقود الذي أشرنا إليه، حتّى رأيناه يسقط أرضًا وحبّاته تتناثر أمامنا.

كما أخبرني أحد الأصدقاء قائلا: في أوائل خمسينيّات القرن الماضي، وكنت يومها لم أزل فتًى، قال لي عمّي، وكان من الأثرياء: يا ابن أخي، لقد اشتريت سيارة جديدة وأرغب في أن ترافقني لإحضارها. فباركت له فيها، ورحّبت مسرورًا، إذ سأكون أوّلَ من جلس على مقاعدها. ولمّا وصلنا إلى صالة البيع أشار عمّي إلى سيارةٍ حمراء اللون متوقفةٍ في الباحة الخارجيّة، وقال: هذه هي، فما رأيك؟

قلت: إنها رائعة يا عمّاه، تقولها من الأحلام.

وبعدما تسلّم مفاتيحها دار عمّي حولها ثم أخرج من جيبه مسمارًا وأحدث خدشًا طويلا على جانبها. فتملكني العجب وقلت بحسرة: لماذا فعلت هذا يا عمّاه؟

فقال: اتقاءً من «صيبة العين»، يا ابن أخي، فعوض أن ينظر الناس إليها نظرة حسدٍ قائلين: «ما هذه السيارة الفخمة يِخْرِب بيت صاحبها»، سيقولون: «يا حرام شو عاملين بهذه السيارة؟»

كما شاع في إحدى قرى جبل لبنان، عن امرأة تدعى «جميلة»، أنها «تصيب بالعين». وما أقنعهم بذلك يوم قامت إحدى النساء بـ«سكب رصاصة» فوق رأس طفلٍ مريضٍ إذ رأوا صورة «جميلة» في الشكل الذي تحولت إليه الرصاصة، بعدما أذابتها على نارٍ حامية ثم أطفأتها في وعاء، فيه ماءٌ باردٌ، فوق رأس الطفل. فصار أهل القرية يجتنبون جميلة قدر الإمكان. كذلك أصبحت موضع تساؤلهم، عند مرض أيّ طفلٍ،

أو إذا حدث أيُّ مكروه في حيوان أليفٍ، أو شجرٍ أو نباتٍ أو غيره، عمّا إذا كانت عين جميلة السببَ في ذلك.

كاهن مسيحي يصلي على مسلم ميت

روى لـي الصـديق الأسـتاذ إدمـون رزق، اللبنـاني الـوطني الصميم، (لن أقول صاحب المعالي الوزير والنائب السابق، لأن الكبير لا ترفع الألقاب والمراتب من قدره إنما هي التي تكبر به)، قال: «إبّان احتلال العدوّ الإسرائيليّ لجزّين[1] وما جاورها، انفجر لغمٌ أرضيّ وأودى بحياة شابّين لبنانيّين، أحدهما مسيحيّ والآخر مسلم من بلدة روم القريبة من جزّين. فبحث الوالد المسلم المفجوع، عن رجل دينٍ مسلم لإقامة الصلاة، كي يواري ابنه الثرى، ولكنّه لم يجد في الجوار وحدًا منهم بسبب الاحتلال والأحوال الأمنيّة التي كانت سائدة في تلك الأيّام. فحمل جثمان فقيده وذهب به إلى كنيسة البلدة وطلب من الخوري إقامة الصلاة. طبعًا لم يتوانَ، هذا الأخير، ولو للحظة واحدة عن تلبية طلب ذلك الأب. وبعد أن فرغ الخوري، ذلك الإنسان الوطنيّ المشبع بالمحبّة، من الصلاة، على الطريقة المسيحية بالتأكيد، فإذا به يرفع صوته عاليًا، من أمام المذبح وتحت قبّة الكنيسة، كما يفعل المسلمون قائلا: «الفـــاتحة».

ثم أتبع الأستاذ رزق روايته، بقوله: هؤلاء هم اللبنانيّون الأصيلون.

[1] وهي بلدة الأستاذ إدمون رزق.

الحراثةُ بثورٍ واحد

حتّى أواخر النصف الأوّل من القرن العشرين، كان الكثيرون من أبناء جبل لبنان، يعتمدون على نتاجِ أراضيهم الزراعيّة لتأمين سبل عيشتهم. وكان كلٌّ منهم يقوم، هو وأفراد عائلته، بالاعتناء بأرضه من غرسٍ، وزرعٍ وجنيٍ وحصاد. وعلى الرُّغم من ذلك فقد كان بعضُ تلك القرى يخلو ممّن يمتهن مهنة الحراثة، ولِذا كان أهلها، في المواسم، يكترون من القرى المجاورة، من يؤدّي لهم هذه المهمّة. وكانت وسيلة الحرث الوحيدة المحراث الرومانيّ يجرّه فدَّانٌ[1] تُقرن رقبتاهما بنير خشبيّ يُربط في وسطِه رأسُ خشبة المحراث، وطولها بنحو المترين. وكان الفلّاح يستعين بالمسّاس، وهو قضيبٌ طويلٌ ثخينٌ عند المقبضِ دقيقُ الرأس، ليوجّه به الثورين، بوخزِ الفخذِ بلطفٍ مرفقٍ بعبارات متوارَثة وحسب الحاجة، مثل (تَرّحْ- ليتجه إلى الداخل، وبَرّي - ليتجه إلى الخارج...).

ويُروى أنّ أحد المالكين، ويدعى سالمًا، تواعد ويوسف، أحد الفلّاحين الممتهنين الحراثة، على أن يقوم بحراثة قطعة أرض اعتاد سالمٌ أن يزرعها قمحًا. وكان سالمٌ هذا يتميز بالصدق وطيبة قلبٍ قد تصل أحيانًا إلى درجة البساطة. وفي اليوم المحدّد غدا سالمٌ إلى الموقع لملاقاة يوسف. ولما أطلَّ هذا الأخير، فوجئ سالمٌ برؤيته حاملًا النير على كتفه، والمسّاس بيدٍ، ويجرُّ ثورًا بالأخرى.

فسأله متعجبًا: ماذا في الأمر؟ أين الثور الآخر؟ وهل يمكنك أن تحرث بثورٍ واحدٍ؟

أجابه يوسف: بالتأكيد لا، فالحراثة بثورٍ واحدٍ شِبهُ مستحيلةٍ. ولكن، كما تعلم فإنّي لا أملك سوى ثورين فقط. وقد فوجئت هذا

1 الفَدَّانُ الثوران اللذان يقرنان فيحرث عليهما، والجمع فدادين. (لسان العرب).

الصباح برؤية أحدهما مفترشًا الأرض من المرض. ولأنّي ليس من طبعي أن أخلف وعدًا قطعته، فقد جئتك على ما رأيتَ.

فقال سالم: ولكن، ما العمل، فزمن الزرع يحتّم علينا أن تُحرث الأرض اليوم قبل الغد، وإلا خسرت الموسم؟

قال يوسف: وهذا ما دعاني إلى المجيء، وليس في اليد حيلة. ولكن، قد نستطيع إنجاز المهمّة إن ساعدتني.

قال سالم: وكيف أساعدك؟

قال يوسف: يمكن ذلك إن حللت أنت محل الثور الآخر.

قال سالم: ماذا؟ لم أفهم؟ كيف أحلُّ أنا محلّ الثور؟

قال يوسف: الأمر بسيطٌ جدًّا، أضعُ أحد جانبي النّير على رقبة الثور والجانب الآخر على كتفيك، ويكون دورك موازنة النير فقط، ليكون عناء جرّ المحراث على الثور وحده.

قال سالم: أمعقولٌ ما تقول؟ أتريد أن تساويَني بالثور وتقرنني بالنير معه؟ لا لا لن أقبل هذا، وعليك أن تجد حلّا آخر.

قال يوسف: لو كنتَ، أنت يا شيخ سالم، تُتقنُ الحراثة لكنتُ حللتُ أنا محلّه فتتولى أنت الباقي. ولا تنسَ أن أوان البَذْر، كما سبق وذكرتَ، يوجب إنهاء الحراثة من دون تأخير.

فصمت سالمٌ وراح يفكّر في الأمر ويجيله في خاطره. فإن لم تتم عمليّة الحراثة اليوم فلا يعلم متى سيشفى الثور المريض. كما أن هناك صعوبةً في إمكانيّة اكتراء فلّاح آخر في ما تبقى من الأيّام التي تصلح فيها الحراثة قبل البذر، ولا سيّما أنه سأل بضعة فلّاحين قبل يوسف وكلُّهم اعتذروا لارتباطات سابقة. وبعد بضع دقائق من التفكير، رأى أنه مُكرهٌ على قبول اقتراح يوسف، وإلّا ضاع عليه الموسم.

وفي أثناء عودة يوسف، التقاه أحد أبناء القرية فدار بينهما حديثٌ فهم منه هذا الأخير، كيف تمّت حراثة أرض سالم.

وفي اليوم التالي كان الخبر قد بلغ أسماع جميع أبناء القرية. ولمّا ظهر سالمٌ في ساحتها، تجمّع حوله بعضٌ منهم للاستفسار عن صحّة هذا الخبر. فلم ينفِه، بل أجاب قائلًا: هو صحيح أنّه وضع النير على رقبتي «وكدنني مع فردة الفدَّان»[1] ولكنّه احترمني فكان يقول لي: «ترّح الشيخ وبرّي الشيخ».

فكم يقابل الإنسان في حياته من أمثال سالمٍ هذا ممّن يرضَون بالعبوديّة المقنّعة بألفاظٍ زائفة؟

[1] قرنني مع الثور الآخر.

طير «أبو فار»

من الأمثال اللبنانية القديمة: «فلان مثل طير أبو فار»، يصفون به الرجلَ الذي يرى نفسه أكبرَ من حجمه. وهذا التشبيه عائدٌ إلى طائرٍ من الطيور التي تعيش في جبالِ لبنان، أكبر حجمًا من البازي، كانوا يطلقون عليه لقب «أبو فار». وحسب روايات الآباء والأجداد، ترجع هذه التسمية إلى الاعتقاد بأنّه بعدما يقف في الصباح الباكر على شجرة عالية، وعندما تشرق الشمس يرى خياله أكبر بكثير من الحقيقة، يقول: سأصطاد اليوم جملا. وكلّما علت الشمس في السماء، صغر حجمُ خياله فينتقل من (اصطياد) جمل إلى أصغر منه، وهكذا حتّى إذا صار ضوءُ الشمس عموديًّا فوقه، وعاد حجمُ خياله إلى حقيقته، عندئذٍ يرجع إلى صيد الفأر.[1]

[1] ص (453) من المجلد الأول الجزء (10) تشرين الأول 1955 – من مذكرات رستم باز - من مجلة أوراق لبنانية.

«لبّادة ونص»

حتّى أواسط الربع الثاني من القرن العشرين كان كثيرون من أبناء جبل لبنان ما زالوا متمسّكين بلباسهم التقليدي: اللبّادة[1] على الرأس، ثم الكبران[2]، وتحته المِنتيان[3] أو الصدرية من أعلى الكتفين حتّى الخصر، ثم الشروال[4] حتّى الكعبين.

وكان في كلِّ قريةٍ، من القرى النائية، دكّان واحدٌ، أو اثنان وأحيانًا ثلاثة، حسب كثافة سكّان كلٍّ منها. وكان الدكّان يحتوي على معظم ما يحتاجه أبناؤها لمعيشتهم اليومية؛ بالإضافة إلى بعض الألبسة. وكان صاحب الدكّان يمنح بعض أبناء القرية فرصة الدفع الآجل لثمن ما يشترونه، إلى ما بعد بيع محصول زرعهم أو غرسهم.

كما كان من الطبيعيّ أن يظهر من بين أصحاب تلك الدكاكين من يستغلُّ حاجة الآخرين، فيتلاعب بقيوده ليكسب ولو قليلا من المال الحرام، إرضاء لطمعه وجشعه.

ويروى أنه في إحدى تلك القرى، جاء أحد المدينين إلى دكّان دائنه، وقال له: يا صديقي شفيق، الحمد لله، لقد تسلمت للتوّ دفعة من ثمن محصول الموسم الحالي، وجئتك لأدفع لك قيمة ما يتوجب لك بذمتي، مع شكري لك وامتناني.

فرحّب شفيق به وشكره. ثم فتح «سِجلّه»، وهو عبارة عن دفتر مدرسيّ أبلت أناملُه والأيّام زواياه، وراح يقلّب أوراقه،

---

1 اللبادة وهي قلنسوة مصنوعة من قماش سميك من الصوف المتلبد. ويقال: تَلَبَّد الشعَر والصوف والوَبَر والتَبَدَ: تداخَلَ ولَزِقَ.

2 الكبران ثوب إلى الوسط يلبس فوق الصدرية.

3 المنتيان او الصدرية التي تلبس تحت الرداء. ويمكن أن تشبه بالقميص كما نعرفه اليوم.

4 الشروال لغة في السروال الذي يقول بعضهم أنه مفرد سراويل. وفي لسان العرب: السَّراوِيل أَعْجَمِيَّة أُعْرِبَتْ وأُنِّثَت، والجمع سَراوِيلات.

بعدما مسح إبهامه ببعض اللعاب الملتصق على شفته السفلى من داخل فمه، إلى أن بلغ صفحة الحساب المطلوب، فقال له: لنا بذمّتك، أيّها الصديق، سعيد، مبلغ كذا.

ويبدو أن تعامل سعيدٍ السابق مع شفيق، قد خلَّفَ في نفسه بعض الشكِّ، فقال له: كلُّ إنسانٍ معرّضٌ للوقوع في الخطأ، فهل لي أن ألقِيَ نظرة على الحساب؟

فناوله شفيقٌ «السجِلّ»، قائلًا: لك كلُّ الحقّ في ما تطلب.

وبينما سعيدٌ يدقّق جيدًا في القيود، وقع نظره على قيد لقيمة لبّادتين.

فرفع وجهه تُجاه شفيق وقال له: ما هذا يا شفيق، «لبّادتين»؟ فمتى رأيتني اشتريت اثنتين دفعة واحدة؟ إذ قد أشتري واحدة في كلِّ سنتين!؟

فقاطعه شفيق، قائلا: لا تغضب يا صديقي، فسأجعله «لبّادة ونصّ»[1].

فوجئ سعيدٌ باقتراح شفيق وراح يصيح، ويلطم رأسَه بيديه، مردِّدًا: «لبّادة ونصّ»؟ «لبادة ونصّ»؟ «لبّادة ونصّ»؟ ثم توجّه إلى باب الدكّان وأخذ ينادي قائلا: بالله عليكم، أيّها الناس، هل اشترى أو لبس أحدكم يومًا «نصف لبّادة»، أو سمع أنّ أحدهم فعل ذلك؟

أسرع شفيقٌ إليه محاولًا تهدئته وإعادته إلى الداخل وهو يقول بصوتٍ خافت: كفى بالله عليك، واسترْ زلّةَ لساني ولا تفضحني، ولك أن تدفع المبلغ الذي تريد.

هدأ سعيدٌ قليلا، وعاد إلى الداخل وقال: بل سأدفع لك حقّك كاملا، ولكن بعد أن تقوم بنفسك بإعادة التدقيق في كامل الحساب

---

[1] لبّادة ونصف.

لإلغاء كلّ ما أضفتَه نتيجة طمعك وجشعك. وإنّي على يقين بأنها ليست المرّة الأولى التي تتلاعب فيها في القيود. وأن تعدني، أيضًا، بأن تعيد تصحيح حسابات كلّ من اشترى ويشتري منك بالدفع الآجل؛ وإلّا لن تنال منّي قرشًا واحدًا، وسأعلم، أيضًا، أبناء القرية كافّة، بما حصل بيننا. وموعدُنا غدًا. ثم غادرَ الدكّان من دون أيّ تحيّة، وهو يردّد: من يأكل المال بالباطل لن يسلم من عذاب ربّه، مهما طال الزمن.

«تراموايِ»[1] بيروت[2]

لكلِّ مجتمعٍ، كبيرًا كان أم صغيرًا، بعضُ العاداتِ والتّقاليد التي تميّزه عن غيره. كذلك قد يكون له عباراتٌ تجري على ألسنةِ بعضِ أبنائه، في أوقاتٍ أو حالاتٍ معينة. فمنها مثلًا في لبنان، عندما يجدُ أحدُهم نفسَهُ في موقفِ ضَعفٍ أو يصعبُ عليه فيه التّبرير، بخاصّةٍ أمامَ من يفوقُهُ قوّةً جسديّةً أو سلطةً رسميَّة، فتراه يبادرُهُ بعبارة مثل: «إنتَ مش عارف مع مين عم تحكي»[3]، أو «أعرف بالأول مع مين عم تحكي»[4]، أو بصيغة السؤال: «مشْ عارف مين أنا؟[5]»، أو ما شابه ذلك.

ويُروى أن أحدَهم صعِدَ إلى إحدى مركبات «تراموايِ» بيروت عائدًا إلى منزلِه، وبين يديه بطيخةٌ كبيرةُ الحجم. وكان ذلك في إحدى ساعات منتصفِ نهارٍ صيّفيٍّ شديدِ الحرارةِ في أوائل خمسينيّاتِ القرنِ العشرين. وعلى الرُّغم من أنَّ البطاقة التي اشتراها بخمسةِ قُروشٍ والصالِحةَ لمقاعدِ الدرجةِ الثانيةِ فقط، فقد اختارَ مقعدًا في الدرجةِ الأولى حيثُ كانت الكلفةُ عشرةَ قروشٍ. والفرق بين الدّرجتين كان في نوع المقاعد فقط، فمقاعدُ الدرجةِ الثانيةِ كانتْ من الخشب الخالِص، بينما كانت في الدرجةِ الأولى منجدةً بقشِ الخيزرانِ الرفيعِ لتجعلها طريّة بعض الشيء.

---

[1] لقد استبدلتهُ الحكومةُ اللبنانيةُ في أواسطِ ستينيّاتِ القرن العشرين بحافلات تعمل على البنزين، معتقدة أنّه كان سببًا مهمًّا في ازدحام السّير. فكان أن أزالت وسيلة تنقّلٍ شعبيّة تعمل على الكهرباء وصديقةٍ للبيئةِ، على العكسِ من تلك الحافلاتِ التي لم تساهم في تخفيف الازدحامِ بل أصبحت عاملًا مهمًّا في زيادة التّلوث، إلى أن أتلفها الإهمال وعدم التّجديد، فحرمت بيروت من أيّ من وسائل النقل العام.

[2] كتبتها في 2018/5/21

3 أي: أنت لا تعرف من تخاطب.

4 أي: عليك أن تعرف من تُخاطب.

5 أي: ألا تعرفُ من أنا؟

ومن سوءِ حظّهِ، أنْ صعِدَ إلى تلك المركبة في المحطةِ التاليةِ، أحدُ مراقبي شركة «التراموايِ» ومهمَّتُهُ مراقبةُ تقيُّدِ الرُّكَّابِ في دفعِ الأُجْرة، وفي اختيارهم المقاعدَ حسبما تخوّلُهم البطاقةُ التي بحوزتهم. فلمَّا وصل إلى حيثُ يجلسُ «صاحب البطيخة» طلبَ منه إبرازَ بطاقتِه. وبعد الاطِّلاع عليها قال له: يا سيّدُ، في جلوسكَ هنا مخالفةٌ، لأن بطاقتَك هذه هي للدّرجةِ الثانيةِ وهذا المقعدُ هو في الدّرجة الأولى.

فما كان من «صاحبنا» إلّا أن أجابَهُ، مع بعضِ التّعجرفِ والتّكبُّرِ، قائلًا: «شووو، ما بتعرف مين أني؟[1]».

فأجالَ المراقبُ فيه ناظريه من أعلى إلى أسفل وإلى البطيخةِ على الأرضِ بين قدميه، ثمَّ قال له: «اليوم هو من أحرّ أيّامِ الصّيفِ في بيروتَ وأنتَ تتنقَّل بـ «التّراموايِ» وتحملُ بطيخةً كبيرةً جدًّا، فمن عساكَ تكونُ يا...؟؟» (بنعتٍ على الطريقة البيروتيّة.)

ثم أضاف: «ولكن من حجمِ هذه البطِّيخة أفهمُ أنَّكَ صاحبُ عائلةٍ كبيرةٍ، ولذا لنْ أسطِّرَ بحقِّكَ أيَّ محضرٍ إذا ما عُدتَ فورًا إلى مقاعدِ الدَّرجة الثانية. ويقول المثل يا عزيزي: رحِمَ اللهُ امرأً عَرفَ حدَّهُ ووقفَ عندَهُ».

1 أي: ماذا؟ ألا تعرفُ من أنا؟

أمير البُزُق[1]

في الربع الثاني من القرن العشرين، كان أحمد عبد الكريم، وهو من غجريّي سوريا، من أبرز العازفين على «البزق»؛ حتّى لُقِّبَ بأمير البزق. والبزق، لمن لا يعرفه، آلة موسيقيّة وتريّة خشبيّة تشبه العود، ولكنّها ذات عنقٍ طويل وجسمٍ أصغر من جسم العود، يتراوح عدد أوتارها بين الأربعة والستة. وكان أمير البزق هذا يتميز بقصر القامة حتّى كاد بعضهم يصفه بالقزم إذ كان يقارب طولُه طول آلته تلك.

وإبّان الحرب العالمية الثانية، كانت سوريا إحدى ساحات المعارك الحربيّة، بين تحالف القوّات البريطانيّة وقوّات فرنسا الحرّة – الجنرال شارل ديغول - من جهة، وقوات فيشي (Vichy) – المارشال بيتان (Henri Philippe Pétain) - الفرنسيّة المتحالفة مع الألمان، من جهة أُخرى.

ويروى أنّه، بعدما تغلّبَ البريطانيّون وحلفاؤهم في تلك المعارك، وسكتت قعقعة السلاح على الأراضي السوريّة، قرّرت القيادات العسكريّة إقامة حفلات ترفيهيّة للجنود الذين أنهكتهم الحرب. ومن بين هذه الحفلات واحدة يُحييها في دمشق أمير البزق لجنود بريطانيّين.

وبعدما امتلأت الصالة المعدّة لتلك الحفلة، وأخذ الجنود مقاعدهم، دخل أمير البزق يسير الهوينى كالأطفال حاملا آلته بيمناه، ففوجئ الجنود بقصر قامته، وعلت ضحكاتهم مع بعض الاستهزاء. وعلى الرُّغم من ذلك حافظ أمير البزق على هدوئه ولم يصدر عنه أيُّ ردّة فعل، وأكمل مِشيته حتّى اتّخذ له مقعدًا على فراشٍ أرضي. ثم استلّ ريشة العزف ووضعها بين إصبعي رجله اليمنى وراح يعزف النشيد الملكيّ البريطانيّ. فصمت أولئك الجنود وانتصبوا واقفين على أقدامهم، وقفة عسكريّة

[1] من حكايات السابقين. كتبتها في 2020/1/29.

احترامًا لنشيد بلادهم الوطنيّ، حتّى انتهى العزف. فجلسوا وبقَوا صامتين مصغيين بكلّ احترام حتّى نهاية الحفلة.

رحمه الله، كان قصير القامة حقًّا، ولكنّه فرض احترامه بذكائه وعقله الراجح.

القمر وقصة عنترة[1]

يوم لم تكن فضائيّات التّلفزة وما يُسمى بمواقع «التّواصل الاجتماعي» على «الشّبكة العنكبوتية»، قد غزت بعدُ المنازل وقطّعت التّواصل إلى حد كبيرٍ بين أفراد العائلة الواحدة، كنّا نسمع من آبائنا الكثير من الروايات والحكم والأقوال المأثورة، ذات العبر والمعاني القيّمة، سواء مما توارثوه عن سابقيهم أم ممّا تعلموه من تجاربهم في هذه الحياة.

منها، مثلاً، عبارة، سمعتها مرّات عديدة، ليس من والدي فقط، بل من كثيرٍ من أترابه، وهي: «سيصل أهلُ الغرب إلى القمر والعرب ما زالوا مختلفين في قصّة عنتر» (من دون التاء). وتمضي الأيّام ويضع «آرمسترونغ» قدميه، في العام 1969، على سطح القمر ويغرس فيه علم الولايات المتحدة الأميركية.

وعلى الرُّغم من أنّ كلَّ دولة كان لها محطّة تلفزة واحدة أو أحيانا اثنتان، تبثّ عليها البرامج الرصينة ونشرات الأخبار، فقد كنَّا نعتمد كثيرًا على محطّات الإذاعة لاستقاء الجديدِ على الساحتين المحليّة والعالميّة.

وما زلت أذكر جيدًا طُرفة حدثت في ذلك اليوم. كان بلوغ القمر قد حدث في إحدى ساعات الصباح بتوقيت بيروت، وقد سمعنا الخبر موجزًا في إحدى ساعات العمل. ولمّا عدت إلى المنزل رغبتُ في أن أستمع إلى تفاصيل ذلك الحدث التّاريخي من نشرة أخبار «إذاعة لبنان»، لأن نشرة التّلفزيون كانت تبثُّ مساءً فقط. وهنا كانت المفاجأة، كان الخبر الأوّل، عن ذلك الحدث المهمّ، وهذا طبيعيٌّ بالتأكّيد، أما الخبر الثاني، نعم الثاني،

[1] نشرت في جريدة الحياة عدد 20 تموز (يوليو) 2014 رقم 18734.

فقد كان عن أنّ أحد الباحثين قد اكتشف أمرًا عن «قصّة عنترة»، لم أعد أذكر تفاصيله لسخافة الموضوع.

وأعيد وأؤكد أن هذه الحكاية ليست مختلقة، ولا من نسج الخيال.

«عاليادل يا دل يا دل يا أم العبيدية!»[1]

اذكر أنّي ومعشرًا من أترابي أيام الحداثة، كنا نطرب بإنشادها مع غيرها من الأناشيد، نتخذ منها آية لهونا وبعد أن جاوزتُ الحداثة إلى الحوادث والأحاديث، وصار طبيعيًا أن أنظر إلى ذلك من حيث لم أكن أنظر، وقفت عند أم العبيدية هذه، فعرفت منها أنها كنية وصفية للمرأة، ولكني لم أعرف المقصود من هذه الكنية. ولذا رحت أبحث عن أم العبيدية التي آثرتْ أن تظل متوارية عني بحجابها.

ثم زال البأس بعد ذلك، فإنّ ما أعياني وجوده في المعاجم أوقعني عليه الاتفاق على هينة ويسر عند إحدى العجائز اللبنانيات. وترجَّح عندي أن الكلمة هذه بالمعنى الذي وُضعت له «إقليمية» لبنانية الوضع، وأنّ ما كان نكرة عندي وعند المعاجم، هو معرفةٌ عند معشر الشيوخ في لبنان. وفي تعريفها قالت العجوز ما يأتي:

العبيدية شكل من أشكال تجديل شعر العروس وتتألف من أربعة أجزاء.

1 ـ سالفان يجدلان من شعر الفوْدَين يتقاطعان تحت الذقن ويُرِدَّان إلى الوراء فيربطان على الرقبة. (الفَوْدُ: مُعظم شعر الرأس مما يلي الأُذن. وفَوْدا الرأْس: جانباه).

2 ـ الصّدّ والرّدّ، جديلة تجدل من شعر (اليافوخ) أعلى الرأس تُشدُّ قُدُمًا نحو الجبهة وهناك تُفرق إلى جديلتين تفترقان في أعلى الجبين تمرّان عند أعلى العنق وتربطان في أعلى الرقبة.

3 ـ الجدايل وعددها تسعٌ تُجدل من الشعر المحيط بأعلى الرقبة، ترخى على الظهر وتعلق بها ضفائر من فضة.

---

1 من كتاب (أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا) – تحقيق أسامة كامل أبو شقرا – بيروت – 2011. نشرت في مجلة المستقبل الكندي عدد تموز (يوليو) 2021 السنة الخامسة.

4 ـ التريكيات ـ وهي خصل دقيقة من الشعر تُجدل في جانبي القذال ـ مؤخر الرأس ـ مما يلي الأذنين على شكل مثلّث أعلاه عند اليافوخ وقاعدته عند الجدايل، ولا تقل التريكيات هذه عن ثمانين خصلة، في كل مثلث أربعون.

فأم العبيدية إذًا، هي العروس المجدولة الشعر على الشكل الذي ذكر، وقد عزّزت العجوز قولها بأغنية أخرى على أم العبيدية، قالت: كانت النساء اللبنانيات إذا جلَون العروس غنّينها أغنيات مختلفة يدعونها جلوات، وقد قالت إحداهنّ في جلاء إحدى العرائس ما يأتي:

يا واقفه في الجلي يا أم العبيدية *** يا ناقلات العسل من غير زُبديه
هاتوا مصاحف وهاتوا كتب شرعية *** والياخذ البِيض ما له على السفر نيه.

(انتهى نص ما خطه الأديب عارف أبو شقرا،)

وهذا نصّ الأغنية كما وجدته منشورًا على الفيسبوك على الصفحة الخاصة لمستمعي الأستاذ وديع الصافي):

عاليادي اليادي اليادي يا ام العبيدية .. بكرة حنين الهوى بيرجّعك ليّا ..

عنّك ما عندي غنا .. إنتي أمل روحي ..يا ما قطفنا المنى .. وكنتي حدي تلوحي ..
بعدك العمر انضنى .. وتفتّحو جروحي ..وخرست طيور الهنا .. ع جدول الميّة ...

عندي بهواكي أمل .. عالحما بتعودي ..وبيعود يحلا الغزل .. وبالوفا بتجودي ..

عمري يا حلوة انهزل .. وصفّرت ورودي ..وهمّي ع قد الجبل .. والدمعة بعينيا ...

ناطر عشوك النوى .. بعد الجفا تطلي ..للحب نرجع سوا .. يا نجمتي هلّي ..
ونحيي ليالي الغوى .. ومنك عيني ملّي .. وتضحك نجوم السما .. وتدلك عليّا ...

الشيخ أبو علي بشير[1]

ولد الشيخ أبو علي بشير محمد أبو شقرا وعاش في عماطور – الشوف وتُوفّي فيها في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي.

كان شيخنا وقورًا، طيب القلب، محبًا، حسن الوجه، طويل القامة[2]. وكان من القلائل الذين ميّزهم الله بجسدٍ خارقِ القُوى. ولو قدِّر له أن يمتهن نشاطًا رياضيًا لأصبح من الأبطال العالميين في زمانه، وخصوصًا في رفع الأثقال. ولكنه آثر التوجّه إلى شؤون الدين مترفعًا عن زُخُرف الدنيا. وقد سمعنا، في ريعان شبابنا، من بعض من عاصروه شابًا، رواياتٍ عدة عن قوته الجسدية أذكر منها:

قصّته مع «الإبراهيميّة»

«البارودة الإبراهيميّة» بندقيّة قديمة عرفها اللبنانيون أيام احتلال جيش إبرهيم باشا لسوريا من العام 1832 إلى العام 1840. وكانت هذه البندقيّة طويلةً وثقيلة الوزن بحديدها وخشبها. وقد كان الشيخ أبو علي في الثامنة عشر من سني عمره عندما أمسك بفوهتها بإصبعي يده اليمنى (الإبهام والسبابة) ورفعها، بذراعه الممدودة بموازاة كتفه، وأخذ يديرها يمينًا ويسارًا، تقوله يُحرّك قضيبًا من القصب أو الخيزران لا يزيد وزنه عن مائة غرام. وقد كان ذلك في بلدة المختارة وعلى مرأى من زوارها.

---

1 حكاية واقعية من روايات الآباء، كنت قد نشرتها في كتابي «حنين الحب». أعيد نشرها بعد إضافة حكاية قتله الجمل بيده اليسرى التي رواها لي حفيده، قريبي نبيل سامي أبو شقرا. وتعديل حكايته مع «الثور الهائج»، بعد التعليق التوضيحي عليها من أقاربنا في السويداء.

2 ولم يزل خياله يلوح أمام عيني كذكرى راسخة في مخيلتي، وقد كنت في أوائل العقد الثاني من العمر.

قصّته مع «القيمة»

كان من عادات اللبنانيين القديمة في الأعراس، كما يحصل في أيامنا هذه، أن يذهب العريسُ بموكب، يضم الكثير من أقاربه وأبناء قريته، «لردِّ العروس» أي لإحضارها من منزل والديها إلى منزلها الزوجي. وقبل توفر السيارات وآليات النقل الحديثة كان يتم الانتقال سيرًا على الأقدام، وكانوا يصحبون معهم فرسًا مزينة مجلّلة لتليق بحمل العروس على ظهرها. وكانت أصوات الموكب لا تنقطع عن الزغاريد، والأهازيج، والغناء ذهابًا، وإيابًا. وإذا كانت العروس من غير قرية العريس فكانت العادة تقضي بأن يكون في عداد موكب العريس شخصٌ قوي الجسم يمكنه «شَيْل القَيْمَة». و «الشيل» أي الرفع بلهجة أبناء الجبل، و «القَيْمَة» هذه كانت عبارة عن شيء من حجر ثقيل غالبًا ما يكون «جرن كبّة» أو «مدحلة السطح»، (ومنهم من يقول «محدلة») وهي ما كانوا يرصُّون به أسطح البيوت الترابية في الشتاء لمنع «الدلف»، أي تسرب مياه الأمطار عبر الأسطح إلى داخل المنزل، وكان يتولى إحضار هذه «القيمة» شابٌ من قرية العروس، وبعدما يطرحها أرضًا يعود فيرفعها أمام رفاق العريس، وينتظر أن يخرج من هؤلاء من يستطيع رفع هذه «القيمة» إلى المستوى الذي رفعها فيه ابن قرية العروس أو أعلى، وإذا لم يتمكن أيٌّ من رفاق العريس من «شيل القيمة» كما يجب، تتم «ردَّةُ» العروس من دون الأهازيج والزغاريد وغيرها إلى أن يغادر الموكب، صامتًا، حدود تلك القرية. وكان «شيل القيمة» يتكرر عند مدخل كل قرية أو بلدة قد يمرُّ بها موكب «ردة» العروس، فإذا رُفعت «القيمة» رافق أبناءُ هذه البلدةِ موكبَ العرس بالأغاني والزغاريد حتى حدود بلدتهم، وإذا لم تُرفعْ أكمل ذاك الموكب سيره صامتًا، ومن دون أي مرافقة، إلى ما بعد حدود هذه البلدة.

ويقال بأن الشيخ أبو علي بشير كان السبب في إلغاء عادة «شيل القيمة» هذه في عماطور لأن «القيمة» التي كان يطرحها

عجز عن «شيلها» عدة مواكب، فقرر كبار البلدة إلغاء تلك العادة، والتي تلاشت أيضًا مع الأيام من جميع بلدات الجبل.

قصّته مع الثور الهائج[1]

في زيارةٍ له ل «رضيمة اللواء»، إحدى قرى جبل حوران – محافظة السويداء السورية حاليًا- صُودف أن بعضًا من أبناء تلك القرية همُّوا يومًا بذبح ثورٍ في إحدى زوايا ساحتها فقيدوا قوائمه ثم طرحوه أرضًا، ولكن الثور تمكّن من الإفلات من بين أيديهم وانطلق مُسرعًا كالسهم هربًا من سكينهم، وقد حتَّم عليه ضِيقُ مدخل تلك الساحة، أن يمُرَّ أمام منزل أحدهم، حيث كان الشيخ في زيارته. وقد قضت الصُّدف أن يخرج الشيخ أبو عليٍّ من ذلك المنزل في اللحظة عينها التي مرَّ فيها الثور، وإذا بأحد الشبان يتوجه إلى شيخنا، ممازحا، قائلًا بصوتٍ عالٍ: «حَيْلَك عليه يا شيخ بو علي» أي عليك به. وقال الراوي بأنهم رأوا الشيخ أبا عليٍّ يمدُّ يده نحو الثور الذي استمرَّ بالجري، وأنَّ الشيخَ لم يهتز في وقفته، وكأن شيئًا لم يكن. فقال له ذلك الشاب، وكأنه يريد أي يعيّره، ولكن ممازحًا أيضًا: «ولو هيك يا شيخ ما قدرت توقف الثور؟»[2]، فأجابه الشيخ أبو علي: «شو بعملّك ذينته ركيكة.»[3] ورفع يده عاليًا وأذن الثور تتدلى من بين

---

[1] وقد علق، ابن السويداء – سوريا، السيد قاسم الخطيب، بالنصّ التالي: «أؤكّد على ملاحظة العمّ هندي الخطيب بأنّ حادثة الثور الهائج حصلت في ضيعتنا رضيمة اللّواء عندما كان المرحوم أبو علي ابْشير أبو شقرا في زيارة أبناء عمومته في طربا ورضيمة اللّواء..
والحادثة حصلت عندما خرج بالصّدفة من منزل جدّنا المرحوم صالح حمود حسين حمّود خازم أبو شقرا، وكان الثّور يعدو بقوّة فنادَوه كي يعينهم في إمساكه.
قال له المرحوم الشهيد صالح حمود حسين الخطيب: له له يا أبو علي ما قدرت تهدّي الثّور؟؟ فقال أبو علي ابْشير: شو بعملّك إذا ذينتو ما هدّتو؟!!
وهذه القصّة مشهورة ومعروفة لنا جميعًا والجيران كانوا شهودًا عليها.»
وآل الخطيب المقيمين في السويداء هم أحد فروع عائلتنا «أبو شقرا- عماطور».

2 أي أهكذا يا شيخ لم تستطع إيقاف الثور؟

3 أي ماذا تريدني أن أفعل وأذُن الثور ضعيفة؟

أصابعه. لقد اقتلعَتْها يدُ شيخنا من رأس ذلك الثور الهائج تقولُه يقتلع نبتة عشبٍ برية من تربة رُويت للتَّوِ.

قصّته مع الضرسين

كما أخبرونا بأن الشيخَ أبا عليٍّ كان يخلع الضرس من دون الاستعانة بأيّ آلة خاصة بذلك، بل بإصبعيه، الإبهام والسبابة. ورَوَوا أن أحدهم جاءه يومًا شاكيًا ألمًا من أحد أضراسه ورجاه خلع ذاك الضرس. وبعدما أتمّ الشيخ عملية الخلع، قال له صاحب الضرس: لا يا شيخ الضرس الآخر لا يؤلمني فهو سليمٌ. فأجابه الشيخ: «شو بعملّك علق بظفري»، (ماذا تريدني أن أفعل لقد علق بظفري)؟

فيبدو أن ظفر إبهام شيخنا كان أقوى من أعصاب الضرس السليم فخلع الضرسين معًا.

الشيخ أبو علي يصرع جملًا بيده اليسرى

قد قصَّ عليّ، بعد نشر كتابي «حنين الحب»، أحدُ أحفاده، قريبي نبيل سامي أبو شقرا، الحكاية التالية، قال: كان المرحوم جدّي قد اشترى كمية من الطحين، من أحد التجار وتوافقا على أن يرسلها له، إلى داره في عمّاطور. وفي اليوم التالي وصل إلى دار جدّي جمّالٌ يجرّ بعيرًا على ظهره أكياس الطحين المشتراة. وبعد إنزالها ونقلها إلى غرفة المُؤن، طلب جدّنا من أهل بيته تحضير الطعام للجمّال. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، أُحضرت الفواكه كالعادة عند أبناء الجبل. فكان أن تناول جدنا تفاحة لإطعامها للجمل. ولكن، ومن دون أن يعلم أحدٌ السبب، فبدل أن يلتهم الجمل التفاحة، فقد قبض على زند جدي الأيمن بفكيه وراح يرفعه إلى الأعلى. ولكنّ جدنا لم يستسلم لقوة الجمل، بل أدخل أصابع يده اليسرى في منخري الجمل ولفّ يده حول رقبة الجمل. وما ان وصلت قدماه إلى الارض حتى قام بلَيِّ رقبة الجمل بسرعة وقوة غير عادية، فكسرها وسقط الجمل صريعًا. وقد جرى كل هذا في لحظات كوميض البَرْق.

ولما رأى الجمّال بعيرَه، طريحًا لا حراك فيه، راح يبكيه والدموع تنهمر من مقلتيه، كما لو أنه فقد أحد أولاده. كيف لا يبكيه وهو مصدر رزقه هو وعائلته؟

ويضيف الراوي قائلًا: ولكن جدي دفع للجمّال 12 ليرة ذهبًا، تعويضًا له عن خسارته تلك. فأخذها وانصرف شاكرًا.

رحمة الله عليك يا شيخ أبو علي.

«حط في الخرج»

عن قصة هذا المثل، يقول المرحوم عارف أبو شقرا (المتوَفَّى في 1958) في كتابه "ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف" المنشور في العام 1957 في بيروت، ما يلي:

من هذه الأمثال: «حطْ في الخرج» تُستعمل في لبنان (وقد تكون نقلت إلى غير لبنان على ألسنة الذين هجروا ونزحوا) بمعنى: لا تهتم ولا تبالِ. فإذا تشكّى إليك أحدٌ فذَكرَ صعوباتٍ ومعاكساتٍ تؤلمُه، قُلتِ له: «حط في الخرج»، أي هوّن عليك ولا تخف.

ولد هذا المثل على أرض لبنان منذ نحو خمسمائة عام، فهو عربي موسوم بالسمة اللبنانية. وهو يشير إلى عملٍ من كبار الأعمال لرجل من كبار الرجال. ويجدر بالذين يراهم الناس كبارًا أن يلتفتوا إلى الوراء، إلى وراء خمسمائة عام ليتشبّهوا ويقتدوا، لعلّهم يقومون بأعمالٍ كبيرة، فتنشأ هناك كلمات وعبارات من معدنٍ طيّبٍ تؤرّخ أعمالهم وتبقى مشيرة إلى مآثرهم كما يشير هذا المثل إلى مأثرة صاحبه بعد مرّ السنين والأيام.

ولد الأمير سيف الدين يحيى التنوخي في بلدة «اعبيه» في سنة 789هـ على الأرجح. ونشأ شاعرًا يتغزل ويشبب ويمدح. ثم أناب[1] وتاب توبة صالحة. ويلحظ أن تدينه كان يعتمد على العمل والمعاملة أكثر من اعتماده على الطقوس والتعبدات. كان على جانب من الثراء واليسر، وكان يطوف الأنحاء اللبنانية في ربوع تنوخ ومعن يتنقل من قرية إلى قرية. ممتطيًا فرسه وتحته خرج قد احتقب فيه أموالًا فكان إذا أتى الفقراء والمعوزين أشار إليهم أن يأخذوا من الخرج حاجتهم، وإذا لقي الأغنياء طلب إليهم أن يضعوا في الخرج ما تيسر لديهم مما يفيض عن حاجتهم، قائلًا: «حط في الخرج» وهكذا دواليك حتى لا يبقى في البلاد محتاج أو معسر.

---

[1] أناب: تاب.

هذا الخبر سمعته غير مرة من شيوخنا: شيوخ بني معروف، ولحظت أنه متناقل بينهم تناقلًا يثبت صحته ويؤكد تواتره. وأن هذا العمل الجميل في برّ الضعفاء والفقراء، بالأخذ للفقير من الغني ما يزال يرمز إليه بالقول المأثور: «حط في الخرج» منذ عهد الناس بالأمير سيف الدين، وإن كان قد تحوّل عن شيء من دلالته مع الزمن.

ويقولون أيضًا: إنه بعد أن تكرر هذا العمل مرارًا، كان الأمير يطوف الأنحاء ثم يعود إلى "اعبيه" والخرج لم يؤخذ منه شيء فلم ينقص شيئًا. وفي ذلك ما فيه من الدلالة على العيش في كفاية بفضل العمل الجليل الذي دفع إليه جوهر التدين الصحيح والإيمان القويم المكين. فأين من هذا العمل في حينه، ذلك الضمان الجماعي الذي يسمع الناس به اليوم ولا يتحقق لديهم شيء منه؟!

ومن الشيوخ من ينسب هذا العمل إلى الأمير السيد: جمال الدين عبد الله التنوخي.

البلاد لا تسع يوسفين[1]

لمّا آل عهد الولاية إلى الأمير يوسف الشهابي[2]، طغى وبغى وأكثر الضرائب وعمّت منه النوائب. ومن جملة ما شرع في سَنِّهِ هو وضعُ رسم على الشاشيات، أي العمامات، الذي سماه العامة: "قرش الشاشية"، وذلك انتقامًا من الدروز لشدة كرهه لهم ولأنّ أكثر لابسي الشاشات كانوا دروزًا. فاعترض على هذا الأمر شيخ مشايخ عُقّال الدروز كافة الشيخ يوسف أبو شقرا[3] من عماطور. وحضر عنده في سرايا دير القمر حيث جرى بينهما المحاورة والمداورة بهذا الشأن، فلم يرتدع الأمير، بل أصرّ على رأيه متهددًا الشيخ بقوله: "البلاد لا تسع يوسفين". فأجابه الشيخ (فليرحل المتضايق)[4] وخرج غاضبًا. فالتقاه غندور الخوري في ساحة الدير، كتخداي[5] الأمير فقال له: أبلغتْ منك الجسارةُ يا حضرة الشيخ حتى قُلتَ لسعادة الأمير (فليرحل المتضايق)، تالله لأحمينَّ فرن الدير بشاشات العقال. فانتهره الشيخ يوسف قائلا: والله العظيم لتكسير رأسك ورأس سيدك يوسف شهاب بهذه العصا (مومئًا الى عصاه بيده) أسهلُ جدًّا من إحماء فرن الدير بشاشات عقّال الدروز. ولكن لأفعلن وأفعلن! ومضى وبات تلك الليلة في بعقلين. غير أنه ما نزل في فراشه حتى كتب إلى جميع الأنحاء وصرف الرسل كلا إلى ناحية. أما نصُّ الكتاب فهو الآتي:

---

[1] (منقولة عن كتاب "الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية" - المطبوع في العام 1952 – تأليف يوسف خطار أبو شقرا المتوفى في 1904 – تحقيق عارف يوسف أبو شقرا المتوفى في 1958).

2 حكم في الفترة بين 1770 و1789.

[3] الشيخ أبو زين الدين يوسف عربيد أبو شقرا.

[4] ومنهم من يقول "المكعوم يرحل" أو "المزروك يرحل".

[5] لفظ تركي - فارسي أصله كدخدا ومعناه "رب الدار". وكان يطلق في لبنان على معاون الأمير أو وكيل أعماله.

«إخواننا أبناء الطاعة

يقتضي حضوركم في النهار الفلاني إلى مرج بعقلين بالأسلحة الكاملة والمؤن والذخائر الوافرة لأمر يحبه الله".

فلما كان اليوم المضروب طفقت الجماهير تفدُ من كل فجٍ وصوب، حتى تألَّبَ في المرج نحو سبعة آلاف من صنف العقّال بأسلحتهم ومؤنهم، وأكثرُهم لا يدري لمَ كان استحضارهم. فتداولوا هناك في القضية وغدوا جميعهم مصممين على شنِ الإغارة على دير القمر وأخذها عنوةً واستبدال حاكمها قسرًا أو يذعن لما أبداه شيخ المشايخ. إلّا أن الشيخ ارتأى إنذار الأمير قبل إظهار القوة. فأنفذَ إليه مُعتمَدًا يقول له: يقول لك حضرة شيخنا أن تنبذ الإصرار على العناد وتميل إلى الهدى قابلًا ما أبداه لك. فلم يرعوِ الأمير وظلَّ مصرًّا على عناده. فخرج المعتمَد من أمامه قائلا له: إذًا وجهك والرجال. فارتعد الأمير لسماع هذه العبارة الجفائية وكأنّه انتبه من غفلته متيقنًا أن وراء الأكمة ما وراءها. فدعا باثنين من رجاله وأمرهما بسرعة السير جهة الشوف لمشارفة رجال الشيخ والوقوف على ما ينوون إجراءه. أما الشيخ فلما عاد معتمَدُه من لدن الأمير مخذولا امتطى بغلته وسار نحو الدير فسارت في أثره الرجال، ورفع عقيرته بالإنشاد «على المصطفى زيدوا الصلاة». ورجعت جواسيس الأمير تنذره بالخطر الملمّ والخطب المحدق، فهاله الأمر وارتعدت فرائصه فرقًا وضاقت به الدير على رحبها إذ لم يكن لديه ساعتئذٍ من القوة ما يقوم بصدِّ ذلك العسكر العظيم. فهمَّ بالرحيل، وبينما هو كذلك إذا بالمشايخ آل نكد وبقية وجوه دير القمر قد تدخلوا في القضية وأوقفوا الشيخ يوسف عن إتمام مُراده، متعهدين له بتنفيذ مطالبه، وأجروا المصالحة بعد أن أقلع الأمير عن قصده ورفع الرسم عن الشاشيات ورفع خلافَ ذلك من المظالم.

ولما راقت مياه الوداد بين الأمير والشيخ جعل الأمير يدعو الشيخ إليه لأجل قراءة الأوامر والفرمانات التي كانت ترد من

الجزار[1] والإجابة عليها. وما فتئ الأمير يلاطف الشيخ ويحسن معاملته حتى ركن إليه. فدسَّ الأميرُ السُّمَّ في طعامٍ قدمه له ولأحد رجاله من ذوي قرباه، وهو الشيخ خطّار نجم نمر أبو شقرا، فقُضِيَ عليهما مسمومين. فكان فقد الشيخ يوسف فاجعة أكبرها أهل البلاد. وصحت منهم الهمم للشغب والعمل على عزله.

[1] هو أحمد باشا الجزار والي عكا، التي كانت الإمارة تتبع لها.

البريد الأبيض[1]

خمس قرى في لبنان كانت على عهد الأمير بشير الشهابي، بل مدة حكم الشهابيين جميعًا، مستثناة من بين سائر القرى، فلا ترجع في شؤونها ـ ولا سيما المالية منها ـ إلى رجال الإقطاع، بل كان الأمير الحاكم يتولاّها بنفسه، ويختصها بشيء من الإيثار[2] في المعاملات والمكاتبات، ويدعوها الضياع الخاصة[3] وكان أكثر أهلها على جانب من الثراء ولذا كانوا منصرفين عن العمل يقضون معظم أوقاتهم في مجتمعاتهم العامة يتحدثون ويتندرون. فأكسبهم ذلك خبرة في أحوال البلاد واطلاعًا على وجوه سياستها.

وكان الأمير بشير يوجه رسلهُ بالبريد إلى أنحاء لبنان. فكان الذي يتجهُ إلى الجنوب يمرّ بإحدى هذه الضياع فيرى جمهورًا من أهلها مجتمعًا في ساحة الضيعة. فيقفونهُ ريثما يتحدثون إليهِ ويسألونهُ عما لديهِ من جديد. ومنهم من كانت تحوم ظنونهم حول ما تضمنّهُ بريد الأمير فيتناولونهُ حدسًا وحزرًا.

مرَّ الرسول يومًا، فقالوا لهُ: في البلاد اليوم أمور كذا وكذا فلا بدَّ أن يكون الأمير قد كتب: كيت وكيت. ومرَّ ثانيةً، وثالثةً، فكانوا كلَّ مرة يقولون له مُقالتهم الأولى. وكان الرسول يخبر الأمير بما سمع كلّ مرة، فيعجب الأمير كيف اهتدى أولئك إلى معرفة الواقع.

وبعدُ أرسل الأمير رسولهُ في وقتٍ لم يكنْ في البلاد شيء هام، فلم يكتب شيئًا، وإنما قصد إلى اختبار هؤلاء الناس ليس غير. ولما وصل الرسول إليهم قالوا: ما الذي جاء بك؟ ليس في

---

[1] نشرت في مجلة الأمالي العدد 3 السنة الثالثة 23 رمضان 1359 الموافق 1940/10/25. وأعدت نشرها في كتاب، أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا - تحقيق - الطبعة الأولى - بيروت - 2011.

[2] آثَرْتُك إيثارًا أي فَضَّلْتُك.

[3] الضياع الخاصة: دير القمر، عماطور، نيحا، بثلون، عيندارة.

البلاد اليوم من شيء يستحق أن يرسل الأمير فيهِ رسولا، فلا يُعْقلُ أن يكون قد كتب شيئًا. إن بريد الأمير لأبيض هذه المرّة.

هذا ما كان منذ قرن. أما اليوم فقد صيرت الثقافة من كل قرية بلبنان ـ بَلْهَ[1] المدن ـ قريةً خاصة، وقامت الصحف وشركات الأخبار والمذاييع[2] بواجبها في إطلاع الناس على أحوال الأقطار، وتزويدهم بالأخبار يومًا يومًا بل ساعة ساعة. ولم يعد اللبنانيون أخبر لأمور لبنانهم منهم لأيّ قطرٍ في الشرق أو في الغرب. فهم يستبقون الحوادث ويقدرون مواقع الأزمات قبل حلولها.

فإذا رأينا القوم بلبنان يتطالون[3] لاستجلاء كل وارد ويستشرفون لاستكناه[4] كل وافد ويتغايرون في افتراض الفروض وتأويل الأحاديث والحوادث فلا عجب في ذلك ولا دهشة لما ركز في طباعهم من استشفاف الجديد وتعرّف ألوان البريد.

---

[1] اسم فعل، بمعنى: دعْ، أترك.

[2] جمع مذياع: راديو

[3] تطال وتطاول: أن يقوم قائمًا ثم يَتَطاوَل في قيامه ثم يَرْفَع رأْسَه ويَمُدّ قوامَه للنظر إلى الشيء.

[4] الكنه: جوهر الشيء وقدره ووجهه وحقيقته وغايته. والاستكناه: طلب الكنه.

ذياب وأبو زيد[1]

ما زالت حافظتي تعي شيئًا من ذكريات حداثتي قبل الحرب الكبرى[2]. أيام كانت معظم السوامر تعمر بالمألوف من قصص ذلك العهد، والإعجاب بأبطاله وغريب أفعالهم من أمثال عليّ الزيبق، وعنترة بن شداد، والزير سالم، وذياب بن غانم، وأبي زيد الهلالي وما أشبه. وما أزال أذكر كيف كانت المناقشات والمناظرات تقوم بصدد هؤلاء على قدم وساق. وكيف كان الناس يذهبون المذاهب في التحزب لهؤلاء الأبطال: جانب يؤيد هذا، وجانب يؤيد ذاك، وكثيرًا ما كانت المناظرة تتحول إلى جدال، ثم إلى خصام. وقد كان بعضها في بعض الأحيان وفي بعض الأماكن يتحول إلى عراك عنيف يلجأ فيه أولئك إلى الشتم والقذف، فالضرب والطعن.

وأكثر ما كانوا ينقسمون في تحزبهم على أبي زيد وذياب، يرى فريق منهم لأبي زيد ميزة على ذياب لدهائه وصبره وسعة حيلته. ويعتقد آخرون أفضلية ذياب لشجاعته وصدق رجولته؛ ولفرسه المشهورة وبراعته في الكر والفر.

هذا النوع من الحياة كان مألوف العهد الماضي، بل مألوف أقرب العهود الماضية إلينا. ولعل بعض الأنحاء ما تزال تألفه لأنها لم تتناولها الثقافة الجديدة فلم يتح لها أن تستبدل به نوعًا آخر.

لسنا نختلف في النظر إلى سخافة تلك الحياة، وفي القول إنها وليدة الثقافة البائدة التي لم تعد تصلح لنا ولا تغني عنا. وإننا لا شك متوافقون على اعتقاد أنها أمست بعيدة عن مألوفنا غريبة عما تقتضيه أحوالنا، منافية لمطالب حياتنا. ولسنا نقف منها عند

---

[1] نشرت في مجلة الأمالي العدد 15 السنة الثالثة 10 جمادى الأولى 1360 الموافق 1941/6/5. وأعدت نشرها في كتاب، أعمال غير منشورة في كتاب لعارف أبو شقرا - تحقيق - الطبعة الأولى - بيروت - 2011.

[2] هي الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918.

هذا الحد من القول فحسب، بل نذهب إلى أبعد من ذلك. إننا نهزأ بها، ونسخر من الذين عاشوا فيها، ونزدري عقلية الذين ارتضوها، وتحزبوا وتخاصموا من أجلها، وتطاعنوا وتقاتلوا على حسابها.

إننا نأخذ عليهم أنهم أساءوا فهم الحياة، تعادَوا من أجل غيرهم، وتخاصموا من أجل أمور لا تعنيهم، واضطرب حبلهم فلم يكن رأيهم جميعًا ولا كلمتهم موحدة...

ولقد كنا أيام الحداثة الغريرة[1] التي لا تدرك جلال الماضي ولا قِدمِيَّة الأشياء ولا تعرف تأثير الأمس الدابر في اليوم الحاضر، نحسب ذيابًا وأبا زيد موجودين يعيشان في زمننا ذاك، يغيبهما عنا بعد جغرافي لا بعد تاريخي. وكثيرًا ما كنا نتهافت على رؤيتهما في صندوق العجائب الذي ندعوه (صندوق الفرجة) ونعتقد أن الناس إذا شاؤوا دعوهما فحضرا وغشيا السوامر وتزعم كل منهما حزبه وفريقه، أو شاءوا أبقوهما بعيدين متواريين.

ثم يدور الزمن دورته فتتلون مطالب الحياة، ويترقى مقياس النَّيِّقَة[2] في الناس، ويسخر اللون المستجد من اللون المتقادم.

ونعود فننظر إلى أثر الثقافة في الناس فنجد أن الثقافة استطاعت أن تلوّن مطالب الحياة، فعدلت من ظاهر شكلها [من] دون أن تبدل من باطن حقيقتها.

ونجد أن خيال الطفولة الغريرة هو منهاج الرجولة المجربة، ونظريات الحداثة الساذجة تنجلي عن حقائق عملية واقعة.

نجد أن ذيابًا وأبا زيد ما زالا موجودين يعملان عملهما، ويختصم الناس من أجلهما، وتتفرق كلمتهم على حسابهما.

إنهما يغشيان سوامر الثقافات العالية ليمثلا دورًا من أدوارهما السالفة، ويُحْيِيا شيئًا من ثقافتهما البائدة.

أجل. هما نفسهما يعملان بعد أن بدلا زيهما وغيرا اسميهما.

---

[1] المغرورة.

[2] ج، النَّيِّقُ: الذي يبالغ في تجويد أموره، وبخاصة في مطعمه وملبسه.

إن عصر النور والسرعة لن يسمح للتاريخ أن يرجئ النظر في أمر هذه الثقافة إلى الجيل المقبل. إنه منذ الآن يسخر منها ويهزأ بالذين تجوز عليهم أفانينها.

خلاف شريف[1]

نام الشيخ س.خ. «حاصبيا» ليلة لم يكن في ليلة سواها أشوق منه إلى طلوع الصباح. ولم يكد غراب الليل يطير حتى كان الشيخ المذكور قد خف إلى صديقه في قرية عين قني[2] (قرب حاصبيا) وأقبل عليه مع الصبح يقرع بابه.

دهش الصديق من الشيخ يترك محله التجاري ويبكر إليه، وظن أن مهمًّا من الأمر حمله على ذلك، «إن الشفيق بسوء ظن مولع»[3].

لم يستقر المقام بالشيخ حتى حل كمره وأفرغه في حضنه وعد لصديقه خمسًا وعشرين ليرة عثمانية ذهبًا، وناوله إياها. قائلا: خذ هذه فهي لك وإن كنتَ لمَّا تعرف طريق مأتاها.

دهش الصديق، ولم تمد له يد لتناول الليرات، وقال: كيف يمكن أن تكون هذه لي. إني منذ رجعت من أميركا لم تجرِ بيني وبينك معاملة مالية ما. ولا يمكن أن تكون هذه صدقة لأنك تعلم أن الله قد رزقني ما أغناني عن الصدقات.

قال الشيخ: خذها يا أخي، إنها حلال لك حرام عليّ؛ وما كنت لأعطيكها لو كنت أعلم أنها ملكي ولا حق لك فيها.

قال الصديق: أتريدني على أن آخذها من غير أن أعلم وجه حقي فيها؟ إني لا آخذ ما لا حق لي فيه.

قال الشيخ: إنها لك، ووجه حقك فيها بيّنٌ واضح؛ وإليكَهُ:

أمس طرحت في حاصبيا دار للبيع بالمزايدة العلنية. ورأيت أنها بالمبلغ الذي انتهت المزايدة عنده، رخيصة فهي صفقة

---

[1] هذه القصة كتبها الأديب الراحل عارف يوسف أبو شقرا (1899 – 1958) وهي منشورة في كتاب "أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا" من تحقيق أسامة كامل أبو شقرا – الطبعة الأولى 2011..

[2] لعلها عين قِنْيَا، إذ هي التي قرب حاصبيا في الجنوب، أما عين قني، فهي في قضاء الشوف ما بين المختارة وعماطور.

[3] مثل يضرب للمعني بشأن صاحبه. [الشَّفِيقُ: المُشْفِقُ؛ شُفَقَاءُ].

رابحة فأزمعت شراءها وزدت الثمن زيادة كانت هي الأخيرة فانتهت المزايدة عندها ووقع الشراء عليّ.

لكني وأنا أقدم على الشراء كنت أدري أن ليس لديّ من فضل المال ما يكافئ[1] ثمن الدار. وذكرت أنك بعد رجوعك من المهجر رغبت إليَّ أن أجد لك شغلا توظف فيه شيئًا من مالك ولذا عزمت على الشراء وأنا أنوي أن تكون أنت شريكي في نصفه. على هذا صحّت نيتي، وعلى هذا أقدمت على شراء الدار. ورجعت إلى بيتي في المساء على نية أن أغدوَ إليك هذا الصباح لآخذ منك ثمن نصف الدار وأرجع فادفع الثمن كاملا.

إني لكذلك، وإذا برجل يجيئني في أثناء السهرة يقول إنه أحوج إلى شراء الدار وأولى بها مني لوقوعها في جواره، وإن الجار أحقُّ بصقبه[2] ورجاني أن أنزل له عنها لقاء خمسين ذهبًا نقدني إياها. فلم أرَ لي بدًا من قبول رجائه وصرف المبيع إليه. ولما كنت على نية المجيء إليك لآخذ ثمن شطرك، ظللت على نية المجيء لأؤدي إليك نصف الربح. أما وقد اطلعت على ما جرى وعرفتَ وجه الحق في هذا المال، فخذ نصيبك منه مباركًا لك فيه.

قال الصديق: إن كنت تزعم أنك أريتني وجه حقي في هذا المال فإني ما كنت لأرى فيه رأيك. لا أنا اشتريت، ولا مالي خرج من صندوقي. فما زلت حيث كنت لا حق لي بالربح وما أنا بآخذٍ من كل ذلك غرشًا واحدًا.

ورد الشيخ قائلا: إن الأعمال بالنيّات؛ وما كنت لأقف عند ظاهر العمل وأترك باطن النية. فلو لم أنوِ أنك تكون شريكي في هذا الشراء لما كنت اشتريت، ولو لم اشترِ لما ربحتُ. إذن لم يأت الربح إلا من جهة نية المشاركة. ومن هذه الجهة نفسها قد استحققت أنت خمسًا وعشرين ذهبًا. إني مقتنع بأن ذلك لك، كما أني مقتنع بألاّ أقبل في هذا الموضوع جدالا.

---

[1] يكفي.

[2] أحق بما يليه ويقرب منه.

هكذا نشأ الخلاف بين الرجلين وأوجب تدخل بعض أصدقائهما في تسوية الأمر. وانتشر الخبر في التيمين[1] وما والاهما. وظل مدة متحدث الناس في مجالسهم وسوامرهم وكان موضوعَ دهشة رجال من الجيش الفرنسي اقتضت وجودهم هناك حوادث حدثت في أثناء سنة 1921م اذكر منهم الملازم غاسيه "Lieutenant Gassier".

هذا نموذج للتعامل في قوم تسودهم ثقافة خاصة من إرث العهد الماضي، ويرون مثلهم الأعلى فيه وفيما شاكله من المعاملات. وفيه، على قرب عهده منا، غرابة تستهجنها طباع هذه الأيام وأحوالها لما فيها من تكالب الناس على أخذ المال دونما نظر إلى حِلّهِ وحَرَمهِ وهو من هذه الناحية موضوع طريف يرى فيه القارئ شيئًا من الفكاهة. ننشره متسائلين كم يمكن أن نعد من أمثالهِ في هذا الوقت؟[2]

انتهى في 2024/8/6

[1] وادي التيم: منطقة الأمراء الشهابيين. وهي تيمان: الشمالي وهو راشيا وما جاورها والجنوبي، وهو حاصبيا وما جاورها. (المؤلف).

[2] اين نحن اليوم من مثل أولئك الناس؟

طرائف وحكايات من القرية

حتّى منتصف القرن الماضي كانت قرى كثيرة في لبنان لم تزل تتمتع ببساطة العيش، إذ لم يكن التيار الكهربائي بعد قد أنار أزقتها ومنازلها، وبالتالي لم تكن بعد تفاهات وسموم محطات التلفزة الفضائية، مما نراه في أيّامنا هذه، قد لوثت أجواءها. حتّى أجهزة الراديو كانت قليلة أو نادرة. وكان أبناء تلك القرى في معظم أيّام السنة، فيما عدا أيّام الشتاء، يغدون مبكرين إلى أراضيهم للاهتمام بما عليها من أغراس ومزروعات ثم لجني ما تؤتيه من غلال لتحضير مؤونة الشتاء. وهذا من دون أن يتأخروا عن القيام بواجباتهم العائلية أو الاجتماعية. وكان أبناء كل قرية فيما بينهم كأنهم أشقاء يتعاونون في الكثير من أمورهم المعيشية.

وقد رغبت في تدوين ما حفظته الذاكرة في هذا الكتاب، من الحكايات والطرائف، مما كان يروى على مسمعي من كبار السن، أو ممن عايشوها، لما فيها من وصف لبساطة العيش، وطيب النفس، ومحبة الضيف، وحفظ العهد والوعد، وصدق اللسان، وسعة الصدر، وتعاضد ومحبة أبناء القرى فيما بينهم، وغيرها مما تميزت به قرى جبل لبنان حتى أواسط القرن العشرين.

ولا ننسى دور الحكايات والطرائف الشعبية، في إلقاء الضوء على أحوال وسبل عيش الشعوب، وعاداتهم الاجتماعية، وقيمهم الأخلاقية، والإنسانية.

أسامة كامل أبو شقرا